وحي من الجن

بسم الله الرحمن الرحيم
تأملات في سورة الجن

(١) (العلاقة بين سورة نوح وسورة الجن)
سورتان عدد آياتها ٢٨وهما، سورة نوح وسورة الجن. وبما أن السور التي تتساوى عدد آياتها يوجد تكامل بينهما، لاتفاقهم في الصفة، من حيث عدد الآيات التي هي رمز للدرجات، فما العلاقة بين نوح والجن.

آدم رمز على الإنسان الذي يختار أن يقيم أصل حياته على التأمل والقراءة. ونوح هو بداية ظهور أثر هذه الحياة، أي الجدل المتواصل في كل شؤون الحياة "يا نوح لقد جادلتنا فأكثرت جدالنا"، ولذلك فهو رمز على المجادلة.

والجدل هو نوع من القلق الفكري، إذ يشعر صاحبه بضرورة معرفة حقيقة الأمور، يشعر بذلك في أعماقه، ولكن لا يفهم سر هذا الشعور، فلذلك تراه دائم التساؤل، يجادل في كل شيء، كثير السكوت كثير الكلام في آن واحد، فهو كالسد الذي يمنع البحر أن يتفجر في الوادي ،ولكن ما أن ينفتح السد حتى يتفجر البحر وتتلاطم أمواجه، حتى يكون كل موج كالطود العظيم، لأن طول السكوت بالتأمل والتفكير يجعل الإنسان عميقاً وكثير الأفكار، دقيق التحليل، والجدل هو في الأمور الخلقية الطبيعية والبشرية، لأنهما متقابلان، أزواج، وهذه هي الطبيعة، ذكر وأنثى، عطاء وأخذ، فوق وتحت.

والإنسان المجادل غالباً إن لم يكن دائماً غير مرحب به في المجتمع، لأن المجتمعات قائمة على العادات ودين الأسلاف ومنهج حياتهم وحب الراحة، والجدل لا يعرف عادة ولا دين الآباء حتى لو كان دين الأنبياء ولا يعرف راحة، وأين الراحة والكسل في رجل لا يسكت عقله عن التساؤل والبحث، ولذلك يضطر هذا النوع من الناس بعد أن يبحّ صوته من الكلام مع هؤلاء الكسالى المغفلين إلى اعتزال الناس، ولو لفترة، تطول وتقصر تبعاً لظروفه وحال مجتمعه وأمر الرب له، وهنا تبدأ العلاقة بين نوح والجن.

أصل كلمة "الجن" تدل على الاستتار والاختفاء، ولذلك سمي الولد المستتر في بطن أمه بالجنين "أنتم أجنّة في بطون أمهاتكم" وهذا هو شأن النائح المجادل الذي يعتزل الناس، هو كالجنين، ينعزل ليتطور في تفكيره وينضج حتى يبلغ إلى حالة يستطيع بها أن يقوم وحده. فإما أن يهاجر من مجتمعه، كهجرة الجنين بعد بلوغ أجله في التطور، وهذا ما يقع غالباً، بل لعله دائماً، وإما أن يدعوا مرة أخرى ولكن بطريقة أحسن حتى يتوفاه الله.

فإذاً "نوح" هو من النواح والمجادلة، لأن دائم التساؤل الذي لا يجد من يجيبه في مجتمعه ينوح ويبكي لما يشعر في نفسه من الجهل والعجز، وأيضاً ينوح على الكسالى المنافقين الذين حوله، والذلك كان الله يديم تذكير النبي ويقول له "فلا تذهب نفسك عليهم حسرات"، ومن المجادلة التي

هـي سمة الإنسان المتطور، "مضغة مخلقة وغير مخلقة" فالجدال أول الإنسانية من حيث العمل، كما أن آدم أول الإنسانية من حيث اختيار أصل حياة الشخص لنفسه، والجن من الانعزال للتأمل والتطور في العقل، فالعلاقة بين نوح والجن علاقة حتمية، وكل نوح سيصبح من الجن إن شاء أن لا يرتد على جهالته الأولى.

فمن أراد أن يتطور ويترقى فليعد نفسه للوحدة الطويلة، وسيجد ذلك من نفسه بدون مشقة لأن حالته وما يواجه من أهله وأصدقائه ومجتمعه عامة سيجعله يفضل العزلة على البقاء كالأنعام يبحث عن العلف إلى أن يموت. دوام الفكرة سبب العزيمة، ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه، وهل تصبح ملكاً بسهولة "وجعلكم ملوكاً".

...-...

(٢) (من هم الجن)
يوجد عالمين، عالم السماء الأعلى، وعالم الأرض الأدنى، والأعلى يحكم الأدنى، ومجلس الملأ الأعلى يحكم العالمين، والرب هو حاكم الملأ الأعلى.

الرب هو الروح المتعالي، ثم مجلس الملأ الأعلى هو من رؤساء الملائكة الوكلاء، كجبريل رئيس ملائكة الوحي، وملك الموت رئيس ملائكة التوفي، ولهؤلاء الرؤساء الوكلاء وزراء من الملائكة أيضاً، كهارون وزير موسى، والجنود تحت الوزراء والرؤساء، وهم الذين ينفذون أمر الرئيس الأكبر، والأمر كله من الرب المتعالي.

ولكل شيء من جوانب الحياة في العالم الأدنى، الأرض، ملك يحركه بحسب أمر الله، فالموت مثلاً جانب، والمسؤول الأول عنه، الموكل به، هو ملك الموت، ولكنه ليس هو بنفسه الذي يقوم بالتوفي، ولكن جنود الملائكة الذين هم في طاعته، "الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم".

رئيس الجن في الملأ الأعلى هو إبليس، هو الوكيل الأكبر لشؤونهم، كجبريل بالنسبة لملائكة الوحي الذي يسطرون الوحي في قلب النبي "ن والقلم وما يسطرون"، ولإبليس جنود، كما أن لملك الموت جنود، "وجنود إبليس".

فقبل واقعة السجود لآدم كان الجن كلهم جنود لإبليس، فهو ملك الجن الممثل لهم والقائم بأمورهم بحسب أمر الروح المتعالي.

ولكن بعد أن عصى إبليس أمر ربه طرد من الملأ الأعلى، فعندها انشق جنوده إلى حزبين، فريق استمر على طاعته، وفريق تركه، وهذا الفريق الثاني أصبح بلا ملك، أو إمام ليتعلموا منه أمر الرب وأسرار الخلق، فهو كالحيران من الناس الذي لا يعرف النبي أو الإمام الولي، وهؤلاء هم الذين نزلت فيهم سورة الجن، التي تشرح حالهم، أما الفريق الأول الذي بقي على طاعة إبليس فهم الذين تنسب لهم الوسوسة والإضلال وما شابه.

فالجن قبل الناس من حيث الخلق.

ما معنى أن الجن خلقوا من نار: النار هي نور يحرق ويهلك ما يقع فيه ويؤثر فيما حوله بمجرد حضوره، ووصف الله هذه النار بقوله "نار السموم" و السموم من السم، وهو القاتل أو المميت.

والكائنات السماوية، كالملائكة والجن، ليس لها أجسام، ولكن أجساد، وهي ما لا تحتاج إلى طعام لتبقى، "وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام"، ولها قلب، وهو ما يجعلهاكائنات عليا، بعكس البهائم التي ليس لها قلب، وهو الذي يتلقى الوحي من الرب المتعالي ويشعر بالأمور وبالغير ويحكم الجسم والأنانية، فالقلب يغير الجسم وأحكامه، فالجن إذن لها قلب وجسد، وهذا الجسد بالنسبة للملائكة هو نور محض، وبالنسبة للجن هو من مارج من نار السموم.

كما أن قوله عن آدم أنه خلق من طين وما أشبه كله رموز على رغبات وأفكار، أي صفة نفس الإنسان وتكوينه القلبي بطريق المماثلة، كذلك خلق الجن من نار هو رمز صفتهم وصفة عقولهم ورغباتهم.

التراب بنفسه ساقط إلى الأسفل إلا بجهد يرفعه إلى الأعلى، أما النار فبنفسها صاعدة إلى الأعلى وحبسها في الأسفل هو الذي يتطلب مجهوداً. والأعلى رمز العلم الباطني، لأنه المرموز له بأمثال الخلق، كالشمس للقمر والقصص القرآني، فالأسفل رمز البقاء على هذه الصور الميتة، أي التي لا نفهم معناها وسبب خلقها وأسرارها، ولذلك كان الناس إذا لم يجتهدوا في التأمل والقراءة وإقامة التجارب والملاحظات فإنهم يكونون في سقوط دائم في الجهل والخرافات وما أشبه، خاصة في علم الأنبياء، فإن الذي لا يجتهد كثيراً وبقوة ليرفع حجب الأمثال القرآنية فإنه واقع لا محالة في عبادة الأصنام، إذ يظن أن الحجاب هو عين الكتاب، وهنا سقط تسعة أعشار الناس إلا من رحم ربك.

أما الجن، فكونهم من نار يدل على أن عقولهم ترى الباطن رأساً وبدون جهد يذكر، كسهولة رؤيتنا نحن من حيث الجسم للأجسام الأخرى، فإذا قال لك رجل "انظر إلى هذا القمر الجميل" ما عليك إلا أن ترفع عينك فتراه، ولكن إذا قال لك "ما هو تأويل القمر، أو كيف يثبت هذا القمر في السماء" فعندها تبدأ الأعين تدور من الحيرة والرؤوس تشيب من التفكير، وهذا هو الفرق بين نظر الجسم إلى الأجسام لأنها من طبيعته، وبين تأمل القلب وهو ساكن في الجسم ومحتجب به.

أما الجن فلأن طبيعتهم من نفس طبيعة الأمر النفسي والملكوتي الباطني فهم يرونه بسهولة، وما أن يسمعوا مثلاً حتى يفهموا المقصود منه، ولذلك أحبوا القرآن.

وهذا معنى أنهم خلقوا من نار، لأن صنم المثال ما أن يقترب منهم حتى يحترق ويهلك وتظهر حقيقته التي هو ليس إلا حجاباً لها، وليس غير هذا. لأنهم لو كانوا من هذه النار الجسمانية لرأيناهم بأعيننا الجسمانية كما نرى هذه النار، فافهم الأمثال ولا تعبد الأصنام.

وفي التأويل الأكبر، الجن هم أهل العشق، لأنهم كالنار التي لا تبقي ولا تذر، لا تبقي على حي مخلوق إلا وأفنته لأنها ترى المعشوق لا غير، ولا تذر ممكناً في العلم الغيبي إلا تركته لأنها ترى عينه التي ليس هو قائم إلا بها، ولذلك جاء ذكرهم بعد نوح، المجادل، الزوجي التفكير، إذ يحاول أن يفرّ من هذه الزوجية والجدل العقيم الذي يجوز أن يؤيد كل شيء وكذلك ينقض كل شيء، فيريد أن يفر عن هذه الزوجية، فينظر إلى عينها فيجد الوحدة المطلقة، النار الكبرى "كل شيء هالك إلا وجهه".

فالجن هم جنود إبليس وَ حيارى الجن الباحثين عن الإمام المتأله الذي توجه الرب بتاج أسرار الخلق، والجن هم كل من يفهم الأمثال بسرعة وبداهة من الناس، والجن هم أهل العشق، والحمد لله.

...-...

(٣) ("قل أوحي إليّ")
لكل حرف في القرءان حكم، ولو قدَّرت عدم وجود حرف أو كلمة وكان فهمك للآية قبل التقدير وبعده واحداً فأنت لم تفهم الحكمة بعد.

ما الفرق بين قوله "قل" فقط، وقوله "قل أوحي إليّ"، لماذا لم يقل مثلاً "قل أوحيّ إليّ أن الله أحد".

القرآن كله وحي، فلماذا خصص هذه الآية بقوله "أوحي إليّ".

الفرق أن "قل" تدل على كشف معلوم، أما "قل أوحي إليّ" تدل على الأمر بكشف مجهول. مثلاً، أنت قد تفكّر في مسألة رياضية، ولنقل "٥+٥=١٠" استنتجت ذلك بنفسك وبقدرتك العقلية، فالأمر إذا جاءك بوجوب كشف هذه المعلومة فإنها تأتي هكذا "قل ٥+٥=١٠"، أما لو وقع حادث في دولة أخرى، وجاءك خبر من مراسل صحفي في تلك الدولة وأمرك بأن تكشف هذه الحادثة فإنها تأتي هكذا "قل جاءني خبر من مراسل صحفي أن الحادثة كذا وكذا وقعت".

فكل "قل" في القرآن هي أمر يستطيع العقل الإنساني بنفسه أن يكتشفه، بالتحليل وبالتجارب أياً كان، المهم أنه يستطيع أن يكتشفه بنفسه ولا يحتاج إلى وحي خاص ليخبره به، فمثلاً قوله عن المحيض "فاعتزلوا النساء في المحيض" التي سبقها "قل هو أذى فاعتزلوا" استطاع الناس بالدراسة الطبية والتحاليل أن (يعرفوا أن) المحيض أذى بالنسبة لرجل ومن الأحسن اعتزال النساء في فترة المحيض، وهذا مجرد مثال وقس عليه الباقي وتعمق.

والوحي محله القلب "نزل به الروح الأمين على قلبك"، فإذن قد يسمع أو يشعر الإنسان بالجن، ولكن لا يتم ذلك إلا إن أراد الرب ذلك، وقد لا يعلم نفس السامع من الذي يجعله يسمع الجن، ولذلك قال "أوحي إليّ" بالمجهول، ولم يعين من الذي أوحى إليه، مع العلم أن الله هو الذي أوحى، وكذلك يقع لمن صفا قلبه بدوام الذكر والتعمق في أسرار القرآن، فحتى هو يعلم يقيناً أن الله هو

الذي يسمعه، ولكنه يقول ذلك بعقله لا بمشاعره، لأن عقله اصطلح على تسمية كل ما لا يرى مصدره المباشر، الله، وكل خير يأتيه ينسبه إلى الله، ولكنه في حقيقة الأمر لا يعلم يقيناً من الذي يعطيه ما يعطيه، لأنه ما رأى شيئاً، فهو كالذي يرى اليد ولا يرى الوجه، فقال في نفسه "لكل يد وجه" فسمّى الوجه، الله، لدين يعتنقه أو ما يدور في مجتمعه وما شابه ذلك من وسائل التأثير على العقل.

ولو نظرت في كل سورة الجن وما يدور فيها عن الجن، فكله كلام قالوه، كلام الجن، والقرآن كالذي يسمع ما يقوله الجن، وهذا معنى قولنا أن الإمام يسمع الجن إن شاء له ربه ذلك.

لو قال "قل أوحي" وخذ كلمة "إليّ" لما تأثر المعنى بحسب الفهم الساذج، لأنه لو قل "قل أوحي أنه استمع نفر" لفهمنا أن الوحي جاء إلى النبي بديهة، وهل كان الوحي يأتي لأبي لهب، فما معنى وجود كلمة "إليّ"، معناه أن الإمام قد يكون بين جماعة وهو يسمع الجن وهم لا يسمعون شيئاً إطلاقاً.

وهذا هو الفرق بين عقل الإمام وعقل العوام، فالمبدع من الناس يرى في الأمر ما لا يراه غيره، بل لعله يرى في أتفه الأمور مشروعاً هائلاً، ويكتشف أعظم المسائل من أصغر الأشياء والظواهر، فالعبرة هنا هي دوام التركيز وانتباه القلب لما يدور حولك، من كلام الولد الصغير الذي يبعد عنك بسبعة أذرع، إلى شكل الوردة التي في البستان الذي خلفك، دوام اليقظة والانتباه والاعتبار هذه هي سمة العقل الجبار.

"أوحي إليّ" لماذا جاءه الوحي دون غيره: لأنه يرغب في أن يتعلم أسرار الخلق كله، الرغبة مناط العطاء.

ما معنى أن تبدأ سورة الجن بكلمة "قل": معناه، من أراد أن يكون عقله أكبر العقول فعليه أن يدرس كل قول، سواء أصدر من عالم أو صدر من غول.

كلمة "قل" تعني بأحد الصور الأمر بالقول، ولكنها من حيث الصورة تحتمل وجهاً آخر هو أن الشيء أصبح أقل، من قَلْ، بفتح القاف، فما معنى ذلك، كون القول مقرون بالإقلال: معناه، كل قول تدرسه فإن الطريق إلى تمام النور قد أصبح أقل، فاصبر واستمتع بالطريق.

"قل أوحيّ إليّ" قد تقرأ أن "قل" وهو شيء ما "أوحي إلي"، فكأن "قل" كائن مستقل وهو الذي يوحي: "قل" بمعنى القول يوحي من حيث أن الذي يفصح عن أفكاره ويتداولها مع الآخرين يتبين له من الأمور ما لم يكن يخطر له على بال، فإما أن ينبهه على أمر قد أغفله، أو يشعره أن كلامه صعباً لا يفهم فيؤدي ذلك إلى بحثه عن طرق أسهل في الشرح، أو كلمة أو سؤال يصدر من السامع يؤدي إلى إكمال فكرة ما، وهكذا وأكثر من هذا قد يؤدي إليه القول، ولهذا عيب الذين يكتمون أو ينافقون، فلو كان مقولاتكم قوية فاعرضوها ننتفع بها، ولو كانت واهية وأنتم تظنونها

قوية فإنما تضرون أنفسكم، فقد تقول فكرة لولد صغير فينفعك منفعة لا تعرف كيف تشكره عليها، ومن جرب علم.

و"قل" بمعنى قَلّ، يوحي من حيث الشعور بالنقص والقلة، فإن الإنسان الذي لا يفكر إلا داخل رأسه يظن أن رأسه مليء بالأفكار العظيمة التي قد تغير وجه الأرض وتصلح العالمين، ولكن ما أن يفصح عما في داخله حتى يرى السراب الذي كان يحسبه ماء من نهر الجنة، وهذا الشعور بالنقص والقلّة سيجعله يبحث عن طرق ليتعلم الحق، وعندها ينتفع أيما انتفاع. والوحي فكرة سريعة لا تعرف كيف جاءتك أو في أكثر الأحيان لا تعرف من أين جاءت، وعندما تشعر بالنقص من ناحية فإن العطاء يأتيك ليدلك كيف تجبر هذا النقص أو الجهل.

فاعلان المقولات، والشعور بالقلة من أعظم أسباب نيل العلم الراسخ والترقي في الفهم. "قل أوحي إلي".

افتتاح سورة الجن، رمز العزلة لطلب أسرار الخلق، بالوحي وذكر "قل أوحي إليّ" يدل على أنه لن يعتزل أحد ويختلي مجتهداً في تعلم أسرار الخلق إلا وسيؤيده الرب بالوحي "ويؤيدهم بروح منه" فمن رغب في العلي آتاه الوحي.

"قل" من حرفين، القاف واللام، القاف رمز القرآن "ق والقرآن المجيد" والقرآن رمز على النور التام، العالم الأعلى، واللام رمز على الغاية من الشيء وحقيقته، كقوله عن الغاية من خلق الشمس والقمر "لتعلموا عدد السنين والحساب" والنور التام وقدر الخلق هما كجبريل وميكال يوحيان إلى الراغب في العلي، الراغب في أن يكون متحداً مع الخالق في العقل، الراغب في الوصول إلى الأرض المقدسة باختيار واجتهاد، كيف يصل إلى ما يريد الخالق ويريد هو، إذ أصبح هو والخالق واحد "وجمع الشمس والقمر".

كل جهد يقوم به إنسان هو استمداد من النور التام، ولذلك تسمّى اكتشافات، لأنها متحققة ولكن يظهرها ويؤلف بينها، وكل فهم لغاية من غايات أمور الحياة وصولاً إلى الغاية الكبرى، الأرض المقدسة، هي فهم من قدر الخلق، وما القرآن العربي إلا إظهار لهذين الأمرين بأقصر الطرق، فمن شاء أن يسلك الطريق الأسهل ومن شاء أن يركب الطريق الأصعب، وأيا كان فكلنا إلى الغاية سائرون، وهل يبحث الناس عن غير المعيشة السهلة والفرحة والفهم، وهذه هي الأرض المقدسة، وكل أفكار الناس واكتشافاتهم إنما توحى إليهم من هذين الأمرين، اللذين هم واحد في الحقيقة، كوجهين لعملة واحدة، النور التام، أي العلم الواسع الشامل، وقدر الخلق، أي المعيشة السهلة والفرحة النفسية والفهم الأكبر، وهذا معنى "قل" قبل "أوحي إلي"، وعدد "قل" هو ١٤، لأن "ق" ذكرت مرتين "ق والقرآن المجيد" و "حم. عسق"، واللام ذكرت ١٢ مرة، فالمجموع ١٤، وهو عدد الحروف النورانية، فواتح السور، رمز النور التام، فالعقل الشخصي هو الأرض المقدسة إذا اتحد مع الخالق، والمجتمع الإنساني هو النور التام إذا بلغ إلى قدر الخلق، المعيشة السهلة والفرحة الكثيرة والفهم الواسع.

...-...

(٤)ما الفرق بين "قل إليّ أوحي" وَ "قل أوحي إليّ" : جعل الوحي قبل "إلي" يشير إلى حال تمام استهلاك المتأله في النور العلي، بحيث أنه لا تبقى له إرادة في مسألة الوحي، أي هو نفسه لا يعرف متى سيأتيه العلم، هو نفسه لا يشعر متى سيعرف ما يريد أن يعرف، فهو في فناء تام من حيث الإرادة، فلا إرادة إلا لنور العلي، وأما المتأله فهو مجرد قابل لعطاء النور العلي.

وبعكس ذلك تشير "إليّ أوحي" فإن فيها من الأنانية والإرادة، وفيها إشارة إلى حصر الوحي في شخص معين وهذا محض الكفر المغطي لنعم الله المتعالي.

ومن أجمل ما في حياة التأله وطلب المعرفة، أي الحياة القائمة على أصل التأله هو أنك تعلم يقيناً أنك ستقل إلى الاتحاد مع الخالق ومع ذلك أنت لا تعلم كيف ومتى بماذا وما هو الشعور في هذا المقام الأخير. فأنت تعلم ولا تعلم، تشعر ولا تشعر، ترى الأمر واضحاً ومع ذلك لا ترى شيء، قمة اليقين مع قمة الحيرة، هذه هي الوحدة المقدسة.

وبناء على ذلك يجب أن لا تحصر نفسك بدين معين، أو منهج معين، أو فكر شخص أو أشخاص معينين. ولا تمنع نفسك من علم أو فرع من فروع المعرفة أياً كان، فإن لم تشعر أنك تحتاجه اليوم فذلك لعدم تحقق الاستعداد فيك بعد، فلا تسد الباب في وجهك بيدك، ولا تسجن نفسك بنفسك. اجعل كل شيء ممكناً، وتحرك بحسب ما تشعر في عمق قلبك، فأنت لا تعلم أين سيكون العلم النافع لك، ومن أين وممن سترتقي درجة في سلم المعرفة المقدس، فلقد ذهب موسى إلى نار فوجد الله يكلمه فافهم.

وعليك أيضاً أن تستمع لك أحد يواجهك، فأنت لا تعلم على لسان من سيظهر الوحي، وبمن ستلقن الحكمة، ومن سيشير بالرمز إلى الحق والباطن، كن حرّاً في كل شيء، ولا تجعل نفسك عبداً لمخلوق بعد أن خلقك الله حرّاً ملكاً.

ولذلك جعل القرآن من أخلاق المبعدين عن الحكمة الذين يقولون "ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم"، فهذا التقييد والاستعباد الاختياري يطرد العقل من الملكوت، وكأن هذا العقل يريد أن يحكم على الخالق سبحانه ويقول له "إني آمرك أن توحي إليّ وتعلمني وتهديني عن طريق فلان وفلان فقط، وعن طريق الكتاب الفلاني والكتاب الفلاني فقط لا غير".

لن يعرف شيء من لا يعرف كل شيء، ولا يمكن لمنهج واحد أن يكشف عن كل جوانب ووجوه الحكمة، ولذلك التقيد بمنهج واحد يؤدي إلى الاقتتال وسفك الدماء السيء، أما طلب الحكمة الحر فهو الجنة بحق "فأينما تولوا فثم وجه الله" وعلى حقيقة هذه الآية تبنى مقولة "طلب المعرفة من كل أحد وشيء" لأنه لا يمكن أن يخلق باطل محض، إذ لابد أن يكون فيه حق، "فأينما تولوا فثم وجه الله" حتى الباطل، لمطلق قوله "فأينما تولوا"، فلو ولينا تجاه صنم أو كعبة أو كتاب ملحد فاسق، "فأينما تولوا" والذي يرى الحق في كل شيء هو البصير بحق.

أن ترى النور في الشمس أمر يسير وتحصيل حاصل: أما أن ترى النور في فرعون فهنا الدرجات العلى التي تطلب ولهذا كله قدم ذكر الوحي على إليّ.

...-...

(٥)"أنه استمع نفر من الجن".
كيف فهم الجن القرءان. وهل تعلم الجن اللسان العربي. وهم لم يسمعوا مجرد سماع ولكنهم تعجبوا لدرجة أن ءامنوا، فهل كانوا علماء في البلاغة وأسرار اللسان حتى يدركوا عظمة القرآن وربانيته، أم هل كان لهم علم بالاعجاز العلمي في القرآن حتى تعجبوا منه وءامنوا به، فلو فهمنا "الجن" على أنهم مخلوقات جسدية غيبية، في عالم الملكوت كالملائكة مثلاً، إذا يجب أن نعرف ونثبت أنهم تعلموا اللساني العربي، وهذا لن يحدث غالباً أليس كذلك، وماذا كانت الجن تتكلم قبل نشوء اللسان العربي.

الملائكة والجن لا لسان لهم، لأنهم يأخذون النور مباشرة وبصفته المجردة، ولذلك الكتب لا تنزل على الملائكة أو على الجن، فهي تنزل من الملائكة وبهم، وكذلك الجن، كما في قصة سليمان، فرق القرآن بين عفريت من الجن وبين الذي عنده علم من الكتاب، فالملائكة والجن لا يفهمون اللسان العربي أو العجمي.

فمثلاً، عندما يقول القرآن "قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون" هل يعني هذا أن النمل يتكلم ويفهم اللساني العربي لدرجة تمام الدقة والعلم بأسرار البلاغة حتى أن النملة قالت "يحطمنكم" بدل يدمركم أو يقتلكم.

هذا يدل على أن لكل مخلوق لسان ما، والقرآن ترجم لنا معنى كلامهم بأتم ما يمكن وأدق ما يمكن. فعلى هذا، كيف فهموا القرآن وهو بلسان عربي مبين، فهمنا لمعنى تلاوة القرآن هو القصة أما معرفة الحكمة من هذه الآية المباركة.

التلاوة إما أن تكون بلسان الجسم، وهي ما يقوم به كل الناس، وهنا مبلغ علم العوام، فلو كانت تلاوة النبي عليه السلام هي هذه التلاوة، والعياذ بالله، لما فهم لا جن ولا غير جن شيء من جوهر القرآن. وإما أن تكون بلسان القلب، وهذه هي التي يستطيع أن يفهمها أهل الغيب، لأنهم قلوب وأجساد، ونحن قلوب وأجسام، وإن لم يوجد عامل مشترك بين اثنين لا يمكن أن يحصل تفاهم بينهم، فمن حيث الأجسام نحن في اختلاف، أما من حيث عالم القلوب فهنا الاتفاق والتوحد، وهذه هي "يتلونه حق تلاوته" ولو قال "يتلونه" وتوقف لكان معنى ذلك التلاوة بلسان الجسم، أي تحريك اللسان بحسب الحروف، ويا حسرة على الذين لا يعرفون من القرآن غير هذا.

ما هي حقيقة التلاوة بالقلب: تمرير حروف الكلمات القرآنية على القلب لا يختلف كثيراً عن التلاوة الجسمانية، فليس ثمة كبير فرق بين تلاوة الجهر وتلاوة الخفاء طالما أن كلاهما هو تمرير للكلمات فقط، سواء في السر أو العلن.

الإنسان جسم وفكرة وشعور، الجسم بنفسه كالميت وإنما يحركه الفكر، بالأمر الجلي أو الخفي، والشعور ما تولد من الفكر، فكرة الموت تولد الخوف عند من يمتلك فكرة تقول "ستذهب إلى الجحيم بعد الموت" وتولد النعيم عند الذي يظن أنه سيصل إلى النعيم بعد الموت، نفس الفكرة تولد شعور عند رجل وشعور آخر عند آخر، والسبب هو فهم كل منهما للفكرة، وهذا الفهم ما هو إلا فكرة ثانية، وهكذا فالمشاعر أبناء الأفكار. القلب هو محل الأفكار والمشاعر، "لهم قلوب لا يفقهون بها" وَ "ألا بذكر القلوب تطمئن القلوب" فالفقه محله القلب، والاطمئان محله القلب، الفقه أفكار والاطمئنان جوهر المشاعر الجميلة كلها.

فالتلاوة بالقلب متعلقة إذن بالأفكار أو بالمشاعر أو كلاهما: والجواب هو كلاهما، لأنهم قالوا "قرءانا عجباً"، و"قرءانا" تشير إلى الأفكار، لأن القرآن هو الأمثال، التي هي محل التدبر، أي الأفكار، و"عجبا" تشير إلى المشاعر، وهل التعجب إلا شعور، وبما أن الأفكار هي التي تولد المشاعر فلذلك جعل "قرءانا" قبل "عجبا".

وكما أن الأجسام تختلف في الجمال، قوى السمين القبيح الذي لا يعرف غير أفكار الطعام والكسل والنوم وعدم الاغتسال والتعطر والتنظيف، نرى هذا قبيح وأفكاره قبيحة لأنها ظهرت على جسمه، ونرى يوسف فنقول "إن هذا إلا ملك كريم" فكذلك القلوب ترى بعضها بعضاً كما ترى الأجسام بعضها بعضاً، وتشعر ببعضها كما يشعر الجسم الحي إذا لمس جسم آخر.

فالتالي للقرآن بقلبه يصبح قلبه في حالة نورية مقدسة، ويتولد فيه شعور من الطمأنينة والوحدة والعلو، فيصبح القلب على هيئة بسبب القرآن تجعل القلب الذي يراه، كالجن، يقول عن هذا الأمر الذي كان سبباً لهذه الحالة العلية "قرءانا عجبا".

وكل فكرة تنشأ في قلب النبي تجعل القلب على حالة معينة، هذه الحالة هي التي يراها الجن فيعرفون حقيقة هذه الفكرة مباشرة، وبما أن قلب النبي يأخذ القرآن على حسب مراد الخالق، لأنه يفهم عنه ويفتح قلبه له، فكل هيئة قلب النبي هي مظاهر لإرادة العلي، ومن هنا بالأصل عرف الجن أن القرآن من الرب الأعلى.

فقبول القلوب للأفكار واحد في جوهره، وما هذه اللغات الكثيرة التي عند الناس إلا ثياب تغطي هذا النور الواحد، كنور الشمس لا لون له، ولكن إذا جعل بينه وبين العين زجاجة خضراء ظهر للغافل وكأن نور الشمس أخضر، فيذهب ويقاتل ويلعن الذي يزعم أن نور الشمس أحمر أو لا لون له، وهذه اللغات تحجب المعاني عن الغافلين كحجب الزجاجة الملونة لحقيقة النور المجردة، ولذلك يجب أن لا نبالي في أي لغة يظهر العلم، وتتكشف المعرفة، المهم أن نفهم وننتفع لا غير.

فالتلاوة بالقلب هي الدراسة العميقة للقرآن، وأي تلاوة، أي تلاوة. ليست هذه غايتها فكأنها لم تكن، بل لعل صاحبهايدخل تحت الحمار الذي يحمل أسفارا، فإن القرآن لم ينزل لنردده كالببغاء

ولكن لكي ندرسه كالأنبياء، وهذه الدراسة العميقة للقرآن تجعل قلب المتأله كالشمس، يهتدي بنوره الجن والإنس، من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم.

فالذي يعلم الناس لمدة ساعة كيف يتلون القرآن بألسنة أجسامهم يجب عليه أن يعلمهم لمدة سبع ساعات كيف يفهمونه أو كيف يدرسونه بعمق قلوبهم. ورذا وجدت تالياً غير متعمق ومتأله فاعلم أنك أمام الذين يشترون بكتاب الله ثمناً قليلاً يتاجرون بدين الله، فابتعد عنه حتى لا يصيب قلبك شيء من سوء حال قلوبهم ورائحتها الكريهة، وهل تعطى نصيحة لرجل عطشان يقف أمام نهر من الماء العذب ويبصق فيه ويأبى الشرب منه.

...-...

(٦) لو كان القرآن غايته عالم الأجسام فكيف يهتدي به الجن، القرآن كله للقلوب بلسان الأجسام للمحجوبين، دراسة القرآن رفع حجب عالم الآفاق لرؤية عالم الأنفس، والملكوت والعشق.

...-...

(٧) يقول الروح "أنه استمع نفر من الجن" أما الجن أنفسهم فيقولون "إنا سمعنا" ولم يقولوا "إنا استمعنا" لماذا؟

الاستماع والسماع، الفرق هو حرف زائد في الأولى، حرف التاء. وزيادة حرف في الكلمة يدل على زيادة في العمل أو زيادة في التأثر. والاستماع هو كمال السماع. فعلى ماذا يدل كل ذلك؟

لا يستطيع المرء أن يرى نفسه، حقيقة نفسه، بنفسه. إلا شيء خارجي عنه، يصف له نفسه، أو يعكس له صورة ما أو مفهوم ما، ثم يقارن نفسه بما ينعكس له. وهنا الله وصف حالة الجن بالاستماع، أما هم فقالوا سماع.

ويدل أيضاً على تواضع قلوب الجن لما حضرت القرآن، فهم لم يقولوا أننا استمعنا حتى يكون ذلك دليلاً على أنهم كانوا في أحسن حالة ممكنة، بل تركوا مجالاً للزيادة. وعلى هذا يجب أن تكون قلوب طلاب المعرفة. لا يرضون بحد محدود منها. ومن تواضعهم هذا وصلوا إلى الإيمان بالقرآن وتحقيق الوحدة في أنفسهم وهي ثمرة الإيمان بالقرآن.

ولذلك قال "سأصرف عن ءاياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق" وبمفهوم المخالفة تصبح "سأعطي ءاياتي للذين يتواضعون في الأرض بالحق" وهذا ما قامت به الجن فتحقق وعد الله. وصدق الله.

ثم يوجد الفرق العملي بين السماع والاستماع وهو التساؤل: فالذي يسمع أمراً يعني ذلك دخول الصوت إلى أذنه فقط، أما الذي يستمع فهو الذي يتساءل ويحلل ما يسمع حتى يفهمه ويسبر غوره ويتعمق فيه. فالجن من حيث قراءة النبي كانوا يسمعون، لأنهم لم يحاوروه في ما يتلو.

فكانوا مجرد سامعين، أما هم، النفر، بينهم كانوا يتساءلون، حتى أدى هذا إلى إيمانهم الجماعي. "فآمنّا به".

وهذه هي حال العارف، حتى لو سمع كلمة من رجل أو طفل مرّ بجانبه، فإنه لا يسمح لهذه الكلمة أن تمر مروراً، لا، ولكنه يحللها ويستفيد منها في أمور العلم. وقل مثل ذلك في الحوادث التي يراها، والأعمال التي يشهدها. ولوح الاعلانات، وصور الناس، وكل شيء. فهذه حالة من القبول التام لكل المحيط وما يحويه. القبول التام، يسمع ويرى، فيحلل ويستنبط ويستقرئ، ويستنتج ويصلح.

ويدل أيضاً على وجوب أمر في غاية الأهمية، وهو أصدقاء الدراسة. فيجب في هذا العلم المقدس أن يكون لكل إنسان أصدقاء يتدارسون الأمور فيما بينهم. وكل واحد يدلي بدلوه، فينتفع الجميع من تباين وجهات النظر، واختلاف مراحل التعمق بين الأخلاء.

وقوله "نفر من الجن" يدل على أمرين هامين، وهو عدد مجموعة الدراسة، ثلاثة على الأقل، لأن النفر هم ثلاثة فما فوق لأنه جمع، وأيضاً كلمة "نفر" ثلاثة أحرف، ولعل أقصى حد للمجموعة من الخير لو كان ستة، لأن عدد "نفر"يساوي ستة، أو ثمانية بعدد حملة العرش، ٣ أو ٦ أو ٨.

والثاني هو قوله "الجن"، يدل على الاستتار، لأن الجن هو المستور. وهو يرمز كذلك إلى الليل، فيعني ذلك أن يكون لمجموعة الدراسة اجتماع محدد للدراسة الجماعية، أقلها مرة في الأسبوع، في السبت خاصة، لأنه يقوم قيام الملة الإبراهيمية، وهو يوم الوحي والاستواء على العرش للتعليم الراقي.

فعلى كل من يرغب في الدراسة المقدسة أن يجد ٢ إلى ٧ عقلاء معه مستنيرين بالرغبة في النور العلي وفهم الأسرار، وأن يجعلوا كل سبت، ليلة السبت أو نهاره، للدراسة، ثم باقي الأيام بقدر رغبتهم، ويجتمعوا، ويتساءلوا في أسرار القرآن، ويفصلوا آياته كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً. والله يحب المحسنين.

وإن الله قد أمر الفرقة التي تنفر لتتفقه في الدين أن تنذر قومها إذا رجعت إليهم: فهذا يعني أنه على كل جماعة تدرس الدراسة المقدسة أن تضع كتباً. وتنشر المقالات. وتكلم الناس في المجامع، المساجد، وما أشبه لتنشر ما تعلّمت. ولهذا يجب أن يصفوا لأنفسهم نظاماً مرناً لإدارة النقاش وتدوين ما توصلوا إليه، أو أن يؤلفوا كل كما يرى. المهم في الموضوع هو نشر تفكيرهم وتحليلهم واستنتاجاتهم حتى ينتفع بها الناس.

يظهر لي أن هؤلاء النفر كانوا من كل أنواع المذاهب والطرق، فلو تأملنا الآيات من ١-١٥ ستجد أنها تحوي الأصول الرئيسية لكل نوع تفكير في الناس: محبي الكتب السماوية، الباحثين عن اليقين، النصارى، اليهود، اتباع الشيطان، البسطاء، السحرة، منكري البعث والروحانية، القائلين

بالنبوة المكتسبة جبراً، المجربين، الشكاك الحائرين، النسبيين، الذين يعبدون بسبب الخوف الدنيوي، النفعيين، المثاليين، الذين يعبدون بسبب الخوف الأخروي. فعلى ماذا يدل ذلك؟

على الجماعة المقدسة أن تدرس الأمور من كل وجهات النظر الممكنة. فلا يحصروا أنفسهم في نمط تفكير معين. ولا يكون همهم شيء واحد فقط. بل على كل واحد أن يحاول أن ينظر من الوجهة التي لم ينظر منها أخوه أو أخته. ويبنى على ذلك أنهم عليهم أن يكونوا واسعي الاطلاع على كل ما يمكن أن تقع يدهم عليه من ثمار العقل الإنساني وتجاربه. ولعلهم إذا تشاوروا وقسّموا الجهود. فيجعلون لكل واحد أن يدرس ما تميل إليه نفسه من مناهج الناس. فينتفعون بنور القرآن، ونور تجارب الناس.

ولذلك من الصعب جداً، بل لعله يقرب من الاستحالة، أن يستطيع أن يدرس القرآن دارس فرد، إلا إن كان عقله هو اللكوت نفسه، وهذا سيكون في حالة من الاجهاد تجعله لا يعرف كيف يعمل شيئاً في أمور الحياة الأخرى. ولذلك كان من الأحسن أن يكونوا جماعات للدراسة، فيتقسم الجهد بين العارفين.

فلو قرأوا مثلاً قوله "استمع نفر من الجن"، يقول الأول "ما هي المعاني اللغوية لهذه الكلمات"، والثاني "وكيف استمعوا وهم بلا أجسام" والثالث "وما أدرانا وجود الجن"، والرابع "وما يهمنا وجودهم أو عدمه" والخامس "وأين محلهم في منظومة الخلق" والسادس "كيف نستطيع تسخير هذا المفهوم في الوصول إلى غايتنا" والسابع "هل يستطيعوا أن يؤذونا" وهكذا وأكثر، فمن كلمة واحدة ينشأ كتاب، هل عرفت معنى كون الشجرة النورانية مباركة؟ فالحمد لله وحده.

وبناء على ذلك، في مجتمع المعرفة يجب أن لا يمنع دخول أي فكر وأي مفكر: بل يجب أن تبذل الجهود في ترجمة جهود الناس في كل مكان. واستقدام العلماء من كل المناهج والمشارب. لأنه بكل وجهة نظر جديدة نفهمها نستطيع أن نصلح جانب من جوانب حياتنا، ونزداد في التعمق في كتاب ربنا، وهذه هي سعادتنا.

ويجب أن يتعلم الناس منذ الصغر وفي كل مكان الاستماع والانصاب للمتكلم، وأن يفهموا أن الاختلاف غنى كاختلاف الجواهر على التاج، تزيده عظمة وثروة، وأن يفهموا غاية الحياة والمجتمع المقدس، حتى لا يسيئوا استعمال المعرفة، فالاختلاف قد يكون ثروة، ولكن قد يكون نقمة، أترى لو ابتلع الناس الجواهر ألا يموتون؟ فهكذا يجب أن يتعلموا كيف يوظفوا الأفكار في حياتهم الباطنية والعملية. وأن يتعلموا الجدل البناء، وأن يكون في عمق نفوسهم أن السطحية هي الشيطان الأكبر.

...-...

(٨) لكل نتيجة مقدمات: الغضب نتيجة لها مقدمات، جمال الجسم نتيجة لها مقدمات مثل ممارسة الرياضة وحسن التغذية، فلا يقول المرء "إني أريد جسماً نحيفاً" ولكن يطلب المقدمات التي إن فعلها سيصل حتماً إلى النتيجة حتى لو لم يعرف كون هذه المقدمات تنتج هذا الأمر

المعين. فلو أجبرنا شخصاً على ممارسة الرياضة وحسن التغذية، فحتى لو لم يكن يعلم لماذا نجبره على هذه الأمور، ألن يصبح له جسم جميل ؟

الإيمان بالقرآن نتيجة، فما هي مقدماتها؟ يقول "قرءاناً عجباً. يهدي إلى الرشد فئامنّا به" فهم قد وصفوا القرآن بصفتين، "عجباً" وَ "يهدي إلى الرشد"، فنتج عن ذلك "فآمنّا به". فيجب أن نفهم تفصيل هذه المقدمات ولوازمها حتى نفهم كيف يتم الإيمان بالقرآن فنستعمل ذلك في الدعوة، وثمار أخرى كثيرة تظهر خلال البحث إن شاء الله. ولكي نعرف المؤمن الحقيقي من المنافق والآبائي، فنعرف كيف ندعوهم، ونعرفهم لكي ننعزل عنهم إن أبوا حتى لا يضرونا بنار جهلهم.

أولا: "عجباً": ما هو الاعجاب بالشيء؟ هو الشعور بجمال الشيء وعظمته بدون معرفة سببه. وحتى لو عرف سببه فلن يبطل العجب منه بالكلية إلا أنه يقلّ العجب وتبدأ فرحة الفهم. وهذا كقول الملائكة للعقيم التي بشروها بغلام "أتعجبين من أمر الله"، ولكن هذا التفسير مبني على مقولات أخذتها من هنا وهناك. فلنضع هذا جانباً ونبحث بقلب حر عن النقل المجرد عن الفهم.

متى يعجبني الشيء؟ إذا وافق ما أبحث عنه: فمثلاً إذا كنت أبحث عن امرأة لأتزوجها، وكنت أريدها جميلة وعالمة، فرأيت امرأة حسناء لها عقل عميق، فإني سأقول "هذه المرأة تعجبني"، فلا يمكن لأحد أن يعجب بشيء إلا إن وافق الشيء هوى معين في نفسه.

وقد أعجب بما ظهر بطلانه ظهوراً شديداً ومع ذلك أرى من يقول عنه أنه حق لا ريب فيه، فإني أقول "عجيب أمر هؤلاء البشر": فأصل هذا التعجب هو عدم رؤية آرائي مقبولة من الآخرين. فهذا يقع عندما أجد من عقلي أن أمراً ما يقيني حتى إني لا أتصور ولا أستطيع أن أتصور الواقع إلا كما رسمته في عقلي، ومع ذلك أجد الواقع بخلاف ذلك، فجذر هذا هو عدم مطابقة الواقع لعقل الشخص. مما يولد شعوراً بأن الأمر ليس وحدة متكاملة. وكأن الذي خلق عقلي غير الذي يخلق الواقع، أو أنه تعمد تضليلي والعياذ بالله. فمن هنا ينشأ هذا النوع من العجب.

ولكن ما نبحث عنه هو التعجب من كتاب علم. وليس التعجب من مواقف الحياة المختلفة. فمتى يقع التعجب من كتاب علم، أو كتاب ما؟

لا، ليس هذا هو السؤال الذي يجب أن يبدأ منه البحث. فلاحظ أن الجن قالوا "إنا سمعنا قرءاناً" وما أدى باقي الجن ما هو هذا القرآن؟ فكلمة "قرءانا" هي الوصف الأول للآيات التي سمعوها.

وكلمة "قرآن" تعني في جوهرها القران، أي ما يشبه عقد القران بين الزوجين. وسر ذلك أن الآيات تجمع بين العالم الأعلى والأدنى، فلا هي روحية مجردة، ولا هي جسمانية مجردة، ولكن روحانية بثوب الجسمانية، لأن الروح عطاء، والجسم أخذ، كالذكر عطاء، والأنثى أخذ، وهذا هو القران.

"والقرآن" مرتبط بأمرين "قرء" وَ "اقرأ". القرء هو الحيض والطهر. والحيض هو سبب اعتزال الشهوة السافلة. والرغبة في العالم الأعلى هي السبب الوحيد لاعتزال السوء عن رغبة وحب وليس عن خوف ولا عن عدم قدرة لتحصيل الشهوة، ولكن عن حب. والطهر هو من الطهارة التي هي السبب الوحيد لمس القرآن "لا يمسه إلا المطهرون" وهي بعد التوبة التي هي الرجوع إلى الملكوت، فالطهر هو الرغبة في تعلم الملكوت لإصلاح الحياة، وليس لطلب المال ولا الشهرة ولا للتسلية فقط وقتل الوقت. فحتى بعد دخول الملكوت الإنسان معرض للنجاسة. ولذلك "ما زاغ البصر وما طغى" فإذا بحسب الفهم كان في الإمكان أن يزيغ البصر ويطغى، وهذا من النجاسة والعياذ بالله. فإذاً القرء هو الرغبة في العالم الأعلى لإصلاح العالم الأدنى. وارتباط هذا بالقرآن والقراءة معناه أن قراءة القرآن هي الوسيلة لتحقيق هذه الرغبة الراقية المقدسة.

فهذا أول ما يجب أن يعرفه الإنسان عن القرآن أنه قران بين الملكوت والآفاق بالنفس.

"عجباً"، عجب الشيء آخره، وأيضاً التعجب الذي هو الشعور بكبر الذي أمامك. والأمران مرتبطان، لأن القرآن ظاهره الآفاق إلى الأنفس إلى الملكوت إلى العشق، ثم من العشق إلى الملكوت إلى النفس إلى الآفاق، فللقرآن آخران، الآخر الأول هو العشق، والعجب يقع من الكبر اللانهائي للنفس المتعالية. والآخر الثاني هو الآفاق، والعجب يقع من المنهج والرسائل التي يعلمها القرآن لاصلاح هذا العالم. فمن الغفلة إلى الفناء، ثم من الفناء إلى إصلاح الحياة بالعقل والعشق.

فبعد أن يعرف الانسان ماهية القرآن، يجب أن يعطى المنهج الذي به يستطيع أن يفهم ويعبر في عوالم القرآن. فمجرد معرفة أن في القرآن العوالم كلها هو أمر لا فائدة منه إذا تقوقع المرء على ذلك، ولكن يجب أن يفهم كيف يفهم ويعبر.

ثم بسبب أن الفاصلة بين الآية ١ و ٢ جاءت بعد كلمة "عجباً" مما يدل على وقفة. والوقفة تدل على مرحلة، أو مدة زمنية. فهذا يدل على أنه على الانسان أن يمارس فهم القرآن، والاعتبار قبل الانتقال للمرحلة التالية. وهذا قد يأخذ وقت يطول ويقصر بحسب حال العاقل المستنير، أي بحسب سعة رغبته ومقدار اجتهاده.

ثم المرحلة التالية هي معرفة أن القرآن "يهدي إلى الرشد". ألا يعني ذلك أنهم كانوا يعرفون مسبقاً ما هو "الرشد"؟ إذ كيف تعرف أن أمراً ما يهدي إلى أمر آخر، إلا إن كنت تحمل في عقلك مفهوم هذا الأمر الآخر؟ فإذا كان الجن يعرفون ما هو الرشد، فما حاجتهم إلى القرآن؟ وقد عرفنا أنهم لابد وأن يكونوا يعلمون ما هو الرشد، وإلا لما عرفوا أن القرآن يهدي إليه.

فهذا يعني أنهم كانوا يعرفون الرشد مجملاً، يعرفون أنه يجب أن نصلح الحياة، ولكن لا يعرفون كيف يصلحون. وماذا يصلحون ، ولماذا يصلحون، أي كان ينقصهم التفصيل، تفصيل الرشد هو

ما كانوا يطلبونه. فإذاً القرآن جاء ليفصّل المعاني المجملة التي نستطيع أن نصل إليها بالتأملات والتجارب. ولذلك قال "وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين".

والرشد هو الخير الواقعي، لقوله "أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً" فضد الشر هو الخير، ورشد من الاقتصار في الشيء، كقولنا ترشيد المياه أي استعمالها بحسب الحاجة والخير. فالقرآن لما قال أنه للخير الواقعي. دلّ ذلك على أنه لا يحتوي على أحلام خيالية، ولا على مثاليات لا يمكن تحقيقها، ولا على خير لا يُعرف كيف يمكن تحقيقه. ولكن يرشد العقلاء المستنيرين إلى ما هو الخير للناس، ثم كيف يمكن الوصول لهذا الخير وتحقيقه: كتفصيله أن المعيشة قبل المعرفة، وأن للمعيشة أولويات. الجوع ثم اللباس ثم الشراب ثم السكن، وكثير من أمور الحياة التي يتنازع الناس في أهميتها وأولوياتها وغير ذلك. فيعرف الامام بواقعيته في الإرشاد إلى الخير الحقيقي.

ووصفهم القرآن بأنه "عجبا" يدل على أن ما في القرآن لا يمكن تصور أحسن منه: لأن العجب هو الآخر. "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم" لم يقل "للقيم" ولكن "أقوم". ولن يعرف أحد الأقوم إلا إن بلغ في التحليل مبلغاً عظيماً. ومعنى ذلك أنه لا يمكن لمجتمع يقوم الأكثرية من أهله بالقرآن إلا وترى المجتمعات الأخرى تنظر إليهم لتتعلم منهم، فلا يمكن لمجتمع فقير حقير أن يكون مؤمن بالقرآن، وإن ادعوا ذلك فإنهم يكذبون رب القرآن. فإما أن يقوموا به حق القيام وإلا فلا يزعموا وجود نسبة بينهم وبينه، تعالى عن أمثال هؤلاء.

فالقرآن ليس للتغني ولا للزخرفة، ولا محل فيه للادعاء. القرآن إما أن يظهر أثره في فرحة الناس ورقي مجتمعاتهم، وإما أنه لا يوجد أصلاً حتى لو وجد بشكله الظاهري بينهم. أترى إلى جثة محمد التي في المدينة المنورة، هي موجودة، ولكن هل معنى وجود الجسم وجود روح محمد عليه السلام؟ كذلك وجود القرآن بجسمه بين الناس لا يعني أنه موجود بينهم. فهيا اسألوا محمد سؤالاً لو كنتم صادقين أنه موجود بينكم. "وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون".

فإذا نخلص إلى أن سبب الإيمان بما نزل على محمد هو، معرفة أن الآيات تحوي العوالم الأربعة، ومعرفة المنهج التام الذي يمكّن من السفر بين هذه العوالم وفهم الغاية من القرآن، وأنه لاصلاح الواقع المعاش. والعوالم الأربعة والمنهج والغاية هي الأفكار الباطنية، والاصلاح الواقعي هو الأعمال الظاهرية، والأولى هي التي نستنتج [الثانوية]، لأن الفكرة هي الدافع للعمل لا محالة، إذ لا همسة إلا وراءها فكرة، عرف الهامس ذلك أم غفل عنه. فإذاً القرآن فكرة تنتج فرحة. منهج ينتج اصلاح. والفرحة هي بسبب النور والعشق الذي فيه. والاصلاح هو للتعاليم التي يهدي إليها. الفرحة أمر شخصي والاصلاح أمر اجتماعي. وغياب الفرحة أو الاصلاح يدل على غياب القرآن، لأنه واحد أحد لم ولا يتجزأ ولا ينفصل. فالفرحة والاصلاح أولاد القرآن، ونهاية القرآن، وآخر ما ينتجه هو اصلاح المجتمع. فالمجتمع الفرح هو المجتمع القرآني، حتى لو لم يكن القرآن بين الناس أصلاً. لأنه بينهم بروحه. والمجتمع الفقير الحقير لا علاقة له بالقرآن ولو صرخ به الناس من على المآذن. القرآن سعادة الناس.

...-...

(٩) ما هي الدلالة التي توحيها فكرة وجود مخلوقات عاقلة غير مرئية لنا؟

حتى يستقر في باطن الناس أنه يوجد شيء أعمق مما يرونه بعيون أجسامهم. وهذا يفتح عيون عقولهم للبحث في العالم وفهم أسراره. وافتراض وجود قانون يحكم الظواهر الطبيعية والبشرية هو الأساس الأول لكل معرفة أظهرها الناس. فمن أين جاءت هذه الفرضية؟ مقولة الجن وأمثالهم هي أحد الأسباب.

وما الذي جعلالناس يفرضون وجود مخلوقات عاقلة غير مرئية، كالملائكة والجن؟

عندما لم يرغب بعض الناس في الشهوات والأشغال الجسمانية المرهقة، أو عدم استطاعتهم لتلبية تلك الرغبات، لفقرهم أو عدم ترفهم، أو كونهم عبيداً أو عمالاً للطبقات الغنية، أرادوا أن يجدوا وسيلة لتحقيق حب الكبر الذي في جوهر كل إنسان، الراحة والكبر جوهر كل إنسان، والكبر هو الراحة العليا.

وبما أنهم كانوا قليلي الأهمية في مجتمعاتهم، فهم محتقرين من قبل الأغنياء، والفقرآء مشغولين عن تعظيمهم لهمومهم الخاصة، فشعورهم بعدم الأهمية من الناس، ولّد فيهم فكرة أنه يوجد مخلوقات أعظم من الناس، أو مثل الناس، وهذه همّها إما مراقبة الناس أو التعلّم منها أو حضور مجالسها. وبذلك يصبح إنساناً مهماً له قيمة، بحيث أنه محط نظر واهتمام كائنات عليا راقية، وبذلك استغنى عن مراقبة الناس له عندما افترض وجود مراقبة الملائكة والجن له. فأشبع بذلك رغبته في الحصول على الاهتمام، الذي يشعره بالكبر المريح لنفسه في جوهرها. فمن أعظم من الذي ملائكة السماء تحصي له همساته وغمزاته؟ هل يشعر هذا بالوحدة ؟ هل يشعر هذا بعدم الأهمية ؟ وبذلك يصبح حتى الفقير المحتقر وكأنه الملك المسيح المنتظر.

إن الناس لا يهتمون، ولا يستطعوا أن يهتموا إلا بأنفسهم، أي بما يحقق لهم الراحة والكبر. وهذا هو أصل كل ما يبحث عنه الناس، وهو الغاية التي من أجلها يقع أي شيء للناس أو بهم.

ولكن هل معنى ذلك عدم وجود الملائكة والجن؟

يقول الله تبارك وتعالى "فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض" فالحق هو ما ينفع الناس، الحق هو ما ينفع الناس، الحق ما ينفع الناس، لا غير لا غير لا غير. افهم هذا جيداً. وتأمله جيداً. واحفظه جيداً. الحق ما ينفع الناس.

فعلى ذلك، ولكل مخلوق أثر، وهذا الأثر إما أنه لا ينفع الناس، فإذن هذا المخلوق لا يهمنا أن نعرف عنه أصلاً. وإما أنه ينفع الناس. فلو كان ينفع الناس بأثره، فإذن أثره يدل عليه. فالملائكة أو الجن، لو فهمناها على أنها كلمات تدل على مخلوقات، كطيور السماء وأسماء البحر، هكذا

منفصلة ظاهرياً عن الإنسان، فهل هذا الفهم ينفع الناس أم لا؟ فإن كان لا ينفع فيجب أن نلغي هذا المفهوم تماماً، لأنه في أكثر الأحيان إن لم يكن كلها يكون الذي لا ينفع يضر. وما أسوأ أن نجلب الضرر على أنفسنا بيدنا، ونكون من الذين يخربون بيوتهم بأيديهم. وإن كان ينفع. فالسؤال عن وجودهم المنفصل ليس سؤال، لأن ما ينفع موجود بديهة.

هل يوجد أحد رأى الملائكة أو الجن؟ هذا النبي محمد يقول الله "قل أوحي إليه أنه استمع" ولم يقل "قل إنه استمع"، فوجود "أوحي إلي" يدل على أنه لم يراهم. وهذه مريم أم المسيح، عندما جاَءها الرسول "تمثل لها بشراً سوياً". والملائكة الذي جاءوا إلى إبراهيم ولوط كانوا كذلك بهيئة البشر، وإلا لما قال قوم لوط "أولم ننهك عن العالمين" إذ كيف استطاع هؤلاء الفجرة رؤية الملائكة لو كانوا بهيئاتهم النورية الأصلية. فلو كان هؤلاء لم يرى أحد منهم الملائكة والجن إلا على هيئة بشرية. فإذن لا يوجد من رآهم.

وإذا نظرنا إلى تصور الناس للملائكة والجن فسنرى أنها صورة بشرية، ولكن الملائكة تأتي بهيئات جميلة، ويرسمون لها أجنحة، والجن والشياطين تأتي بصور قبيحة، ممزوجة بصور حيوان، وقرون، ولو أحمر، لعله من النار. وهكذا، ما هي إلا تخيلات مركبة بحسب ما قيل لهم أن الملائكة نور وجمال والشياطين سواد وقبح.

وهذه المخلوقات على فرض تحققها فإنها تعتبر من عالم الأنفس والملكوت، وليس عالم الأجسام، فمجرد ادعاء أحد أنه رآهم في عالم الأجسام، أي بعيني جسمه هو لغو. ورؤية ما في الملكوت تقع عن طريق الرؤيا. والرؤيا تجسيم للمجرد في المخيلة، ولذلك كانت مرآئي الأنبياء صور جسمانية دائماً. فحتى هنا لا محل لوصف غير جسماني.

فإذن يجب أن نفهم الملائكة والجن بما ينفع الناس، ولا يوجد أحد رأى الملائكة والجن، فالأمر بنفسه لا برهان يقيني عليه. فيجب أن ينظر إليها على أنها أمثال كما يعلّم القرآن "وتلك الأمثال" و "لقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل" وبهذا ينتفع الناس بفهم هذه الأمثال، بدل أن ينحطّوا بالخيالات السقيمة التي تصرف العقل عن فهم العوالم ومحق أحكام الخالق التي أسس بها العالم.

قوله عن وجود مخلوقات عاقلة غير مرئية قد تسمع لنا ونحن ندرس العلم، وتنتفع بما نقول، وتغير مجتمعها بسبب ما قلناه. وهي مؤمنة بنا. ومع كل ذلك نحن لا نراها وحتى لم نكن نعلم بوجودها وحضورها، يدل على أنه على الانسان أن يبذل جهده في ما يحب دون أن ينتظر تقدير الناس له أو يهتم بأن ينتفعوا بما يعمل.

فكم من الناس قد يتكاسل أو يرفض القيام بعمل ما ويقول "وهل يهتم الناس بهذا" أو "إن الناس لن ينتفعوا بهذه المعرفة. كل همهم هو في شؤون الدنيا" وما أشبه ذلك. فهنا يعلم القرآن

أن العالم نفسه لن يعرف من الذي سينتفع بعلمه أو متى. ولكنه يعلم يقينا أن الذي ينفع الناس يمكث في الأرض وسيهتم به الناس. لأن الناس تبحث عن منافعها وتسعى لها.

فالله هو الحاكم، أي الواقع هو الذي يفصل في كون عمل ما نافع أو غير نافع، وليس حماس صاحب العمل، ولا ادعاءاته عن نفسه وعمله، ولا شيء إلا الواقع هو الذي سيفصل بناءً على مدى نفع هذا العمل للناس. فإن كان نفعه أكبر من ضرره كتب له البقاء. وإن كان ضرره أكبر من نفعه كتب له الفناء، طوعاً أو كرهاً، عاجلاً أم آجلاً، فإن الله يمهل ولا يهمل وهو بالمرصاد.

وأنت لا تعلم متى يصبح الناس في استعداد لكي يقبلوا عملك، وبما أنك أنت على استعداد لاخراج هذا العمل فعليك أن تخرجه وتطوره ثم يأتي اليوم الذي يؤخذ منك ويعطى للناس.

وكون الله هو الذي صرف إلى نبيه نفر من الجن ليستمعوا منه. فهذا يدل على أن كل إنسان له موهبة، وعنده ما ينفع الناس فإنه سيأتي إليه من يهتم به، قد يذهب هو إليهم فيقبلوه، أو إن كان عظيماً وعرفوه فهم سيأتوه. وهذا يدل على أنه على كل إنسان أن يطوّر منفعته، أن يعمل على نفع الناس في جانب من جوانب الحياة التي يحب، وبهذا يتكامل الناس.

...-...

(١٠) عظمة القرآن تكمن في أنه يوحي إليك. حتى الحرف الذي لم يُكتَب يوحي رليك سبع مرات فما ظنّك بالذي ذكر؟

...-...

(١١) نلاحظ أن كلمة "أنا" على لسان الجن جاءت ٨ مرات.
١-"وأنا ظننا" ٢-"وأنا لمسنا" ٣-"وأنا كنا نقعد" ٤-"وأنّا لا ندري" ٥-"وأنا منا" ٦-"وأنا ظننا"
٧-"وأنا لما سمعنا" ٨-"وأنا منا المسلمون"
مما يزيد تأكيد ما قلناه من قبل على كون النفر، مجموعة الدراسة، يستحسن أن لا تزيد على ثمانية عقلاء، بعدد حملة العرش. والحمد لله.

...-...

(١٢) "يهدي إلى الرشد فآمنّا به ولن نشرك بربنا أحداً" فعدم الاشراك هو قرار اختياري، وهو بعد الإيمان بالقرآن. "فآمنّا به. ولن نشرك".

تأمل أن الإيمان بالقرآن تم قبل اتخاذ القرار بعدم الشرك. فمعنى ذلك أنه قد يؤمن بالقرآن المشرك والموحّد.

من حيث وحدة الوجود، أي العالم الأول، فالشرك والثنائية استحالة، وليس قرار يتخذه العاقل. ولكن من حيث الملكوت، أي العالم الثاني من أعلى، فالشرك والثنائية جائزة وممكنة. ولذلك فالقرار

هو أن تختار أن لا تعمل إلا بحسب الملكوت. لأن الرب هو الروح الأعلى، فلما قالوا "ولن نشرك بربنا أحدا" دل ذلك على أنهم اختاروا أن لا يتعلموا إلا من الروح الأعلى.

والتعلم من الروح الأعلى هو الوحي والعقل، أي النبوة التامة. فكون اتخاذهم هذا القرار تم بعد فهم القرآن دل ذلك على أن القرآن يحث بنفسه على طلب النبوة، وبذلك يتم للانسان نور التحليل العقلي، ونور الكشف الرباني. "نور على نور" ولا يوجد أكمل من هذا. فمن لا يسعى لتمام الاستنارة فهذا لم يقرأ القرآن.

وكون فهم القرآن ممكن من المشرك والموحد، دل ذلك على أن القرآن لكل من يريد، لا يوجد شروط لفهمه، اللهم إلا الرغبة والاستعداد. فلا يوجد اجراءات شكلية، كقول شيء أو لبس شيء، أو الجلوس في مكان ما، أو الانضمام إلى فرقة ما. القرآن كنور الشمس، لكل من يتعرض لها. وبحسب الاستعداد يكون الامداد.

...-...

(١٣) يوجد آيات من سورة أخرى نقص عن حادثة الجن هذه، وفيها أن الجن قالوا "إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى" لماذا خصّوا كتاب من بعد موسى، بالرغم من أن الزبور والانجيل وكتب الأنبياء كلها نزلت من بعد موسى؟ وما علاقة الجن هؤلاء بموسى وما أنزل عليه؟

هذا يظهر أن هؤلاء الجن هم علماء بني إسرائيل. ولذلك قال "وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله" وقال مشيراً إلى عظمة علماء بني إسرائيل في سورة الشعرآء "أولم تكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل" فالجن هم علماء بني إسرائيل.

التوراة كالقرآن من حيث أنها قصص ووصايا، وهذه حجاب، وأسرار الحق، وهذه الروح التي فيها. والعلماء هم الذين يعقلون الأمثال، أي يرفعون الحجب، "وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون" وإسرائيل هوالملكوت، و"بني" تشير إلى ورثة الإنسان، أليس الأبناء ورثة الآباء؟ فبني إسرائيل هم ورثة الملكوت، ولذلك قال أنه أورث بني إسرائيل الكتاب، والحكم والنبوة. فإذن علماء بني إسرائيل هم كل من يفهم أسرار كتاب الله.

ولما كان هؤلاء يفهمون الحكم التي بها ينزل الله كتابه، حيث إن لهم تجربة مع التوراة، فهؤلاء استطاعوا أن يفهموا القرآن.

ولما كانت هذه الأمة، العرب الذين نزل فيهم القرآن، أي جاءَ إليهم النبي محمد عليه السلام في الأصل، وسارت هذه الأمة الجاهلية "الأعراب أشد كفراً ونفاقا" على سنة الأولين، بحيث اتخذوا الكتاب وراء ظهورهم، وراحوا يسعون في الأرض فساداً، وتركوا طريق الفهم، وانشغلوا بالشعر والخلافات والجهالات، فأصبح المؤمن يريد أن يفهم القرآن، ولكن لا يجد من العرب من يفهمه على حقيقته، فلذلك قال الله "وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا".

لذلك قص الله عن علماء بني إسرائيل، وأخبرنا أنهم يفهمون حقيقة كتابه، وعندهم المنهج الذي به تفتح أسرار الكتب المقدسة، فهم الملجأ الأول لمن يريد أن يفهم القرآن، الملجأ من الناس. ولكن يصطفي الله من عباده من العرب من يعلمه فهم القرآن، وبهؤلاء يستغني المؤمن عن الغير. إلا إن أحب أن يطلع فهذا دائماً خير.

وسمّاهم بالجن لانهماكهم في دراسة الكتب المقدسة والانعزال. ومن يعرف يعرف. "فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك. لقد جاَءك الحق من ربك. فلا تكونن من الممترين."

...-...

(١٤) ماذا يُبنى على أمر القرآن للنبي بالعودة إلى من كانوا يقرأون الكتاب من قبله؟

أنه على من يريد أن يتعلم علماً ما أن لا يتحرج من قراءة كتب العلماء الذين سبقوه، بل يطلب ذلك حتى ينتفع بما صح منهم، ولا يخطىء فيما أخطأوا فيه. فتراكم المعرفة أساس المعرفة.

ولعل الانسان يريد أن يكون أكبر، فيشعر بالنقص إذا تعلم من غيره. فهو يريد أن يكون المبدع الأول في ما يحب. وهذا حسن. ولكن بما أنه يوجد في الواقع من سبقك إلى التأمل في علم ما، فما المانع من أن تفهم ما قال؟ فلعله قال الكثير، بعد أن بذل عمره في كتابة كتاب واحد، فتقرأ أنت هذا الكتاب في بضعة أيام، فتجعل في عقلك علم سنوات، وتتأمل ومعك قوة كبيرة من النور، فالإبداع ثمرة فهم كل ابداعات الآخرين، وهذا الإبداع هوالابداع الذي يرفع الناس درجة في سلّم المعرفة والرقي. وليس مجرد حب الظهور والتميز بالباطل.

وعلى ذلك. في مجتمع المعرفة يجب أن يطلب الناس هذه السوابق العلمية، في كل فروع العلم. ويجب الاستعانة بكل ذي عقل، بغض النظر عن موافقته لنا في الدين أم لا. وهل كان اليهود يؤمنون بالقرآن؟ ومع ذلك أمر الله النبي بسؤالهم إن احتاج لفهم أمر ما. لأنهم أسبق في هذا العلم. وهو يبحث عن جواب سؤاله. ولا يهم إن خرجت الثمرة الطيبة من تاجر ملحد أو تاجر مؤمن. التفريق بين العلم العقلي والحكم على الشخص الذي يخرج منه العلم، دليل على فهم هذا الانسان لحقيقة الأمور وعلوّه.

ولذلك لما قال الكفار للذين ءامنوا بصالح "وأتعلمون أن صالح مرسل من ربه" قالوا لهم "إنا بما أرسل به مؤمنون" تأمل أن الكفار العقلاء أرادوا أن يزرعوا الشك في قلوب المؤمنين، فنظروا من زاوية العلم بكون صالح يوحى إليه من الملكوت، وهذه لا يمكن أن يعرفها الناس. إذ ما أدراهم ماذا يحصل في باطنه؟ ولكن العلماء ردّوا عليهم بالأثر. "إنا بما أرسل به مؤمنون" فهم يقولون "لا يهمنا كونه يصدق أو يكذب في مسألة كيف جاء له العلم، يهمنا العلم نفسه، خمسة زائد خمسة تساوي عشرة سواَء جاَءت من الشيطان أو المسيح" فلا يمكن لأحد أن يوقن أن فلان أوحي إليه من ربه. ولكن بما يخرج على لسان الموحى إليه. إلا إن كان هو نفسه يوحى إليه، فالطبيب يعرف الطبيب، والمهندس يعرف المهندس، كذلك النبي يعرف النبي.

والذين لا يرون فرقاً بين الكلام والمتكلم، والكتاب والكاتب، هم ما زالوا في أسفل سافلين. وهؤلاء اليهود هم الذين يقولون "ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم" وكل من فعل فعلهم فهو منهم.

العلم حق واقع، والناس، والناس تحاول فهم هذا الواقع. وقد يخيء نبي ويصيب طفل غبي. والحكيم هو الذي يفرق.

...-...

(١٥) بما أن الحق هو ما ينفع الناس، فالباطل هو ما يضرّ الناس، والرفض يجب أن لا يكون إلا للباطل، والجن قد رفضوا الشرك، فإذن الشرك مضر للناس. فما وجه هذا الضرر؟

اختلاف البذور يؤدي إلى اختلاف الثمار، واختلاف الغايات يؤدي إلى اختلاف المصالح، واختلاف المصالح يؤدي إلى التقاتل، والتقاتل ضرر عظيم.

الإنسان يعتبر كل ما يوصله إلى غايته صواب وخير وحق. وكل ما يمنعه من الوصول إلى ما يرغب يعتبره خطأ وشر وباطل. وبحسب نظرة الإنسان للحياة ككل. بحسب هذه النظرة تتشكل أهداف الانسان وغاياته. وإذن هذه النظرة. أو الرؤية للحياة هي أصل حركة المجتمعات، فالمجتمع إنما هو مجموعة من الناس. فالرؤية أصل الإرادة.

من أين تأتي هذه الرؤية؟ لماذا يرى إنسان الحياة بطريقة ويراها آخر بطريقة أخرى؟ يجب أن نعرف الاجابة عن هذا السؤال العظيم، لأن الحياة كلها ستتشكل بحسب هذه الرؤية. وهل يتقاتل الناس إلا بسبب اختلاف الرؤية؟ ولذلك ترى الذين لهم رؤية واحدة في صف واحد، ويسمّون الآخر "العدو". واختلاف الرؤية يؤدي إلى اختلاف المصالح. وكل إنسان يريد أن يحقق مصلحته. فإذا وقف شيء في وجهه فسيزيله مهما كلف الأمر.

لا يحق لإنسان أن يدعي أن هذه الرؤية للحياة هي الرؤية الصحيحة، لأن ذلك سيؤدي إلى التقاتل، لأنه سيأتي آخر ويقول "أنت على باطل، بل هذه الرؤية الصحيحة". وبالطبع لا يوجد حكم يفصل بين الاثنين. ثم ما معنى كون الرؤية صحيحة؟ هل لهذا الكلام معنى أصلاً؟ لو كان له معنى لما قال الله لنبيه أن يقول بالوحي المقدس "وإني أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين" فيجب أن يكون لدينا معيار نتفق كلنا عليه لتسمية الرؤية صحيحة، وإلا فيجب أن نصمت.

وما هو هذا المعيار؟ إذ لا يمكن أن نقذف بالدعاوي هكذا، فان الأمر سيعود كما على الرؤية. ما هو الأمر المشترك في كل الناس في تكوين الرؤية؟ هو العالم الجسماني. العالم الجسماني هو العامل المشترك الوحيد بين كل الناس. وحتى أشد الناس تطرفاً في إنكار وجود هذا العالم. فإنه يأكل ويشرب وينام، ثم يصحوا ويمطرنا بوابل أوهامه الروحية بزعمه، ويكلمنا بلسانه الجسماني، ويرانا بعينيه الجسمانيتين ويكتب بيد جسمه. فهو يستعمل ما ينكر، فدليل بطلان قوله هو عين ادعائه.

ولذلك قال على لسان الصادقين عن العالم الجسماني "ربنا ما خلقت هذا باطلا" فهو الحق. فاذن العالم الجسماني هو أساس التوحد الإنساني.

ولا يوجد أمر واحد قاله الناس، أو شيء واحد اخترعوه، إلا وأصله من العالم الجسماني هذا. الطائرة من الطيور، والموسيقى من العصافير وغيرهم، والتجمع للعمل من النحل والنمل وغيرهم، وهكذا لا يوجد شيء إلا وهو مستوحى من عالم الحق، العالم الجسامني.

وحتى الروحانيات إنما هي أمثال جسمانية في المقام الأول الأصلي، ثم يذهب الناس في تحليلها حيث يذهبون.

وإنما يختلف الناس إذا ادعى أحدهم وجود عالم غير هذا العالم الجسماني، وأنه من هذا العالم جاءت أمور، أو أنه إلى هذا العالم يجب أن يفعل الناس أمور معينة، كالذبائح والصلوات والطقوس عامة وغير ذلك. لأنه لا يمكن تكذيبهم فيما يقولون. إذ كيف سنثبت كذبهم؟ وفي نفس الوقت هم يقولون "نحن على يقين من أمرنا"، فيجعلون الحق في جانبهم وحدهم، لأن العالم الأعلى من الجسماني قد أوحى إليهم بهذه الحقيقة المطلقة، وعلى ذلك يكون كل البقية على باطل. وينتج عن ذلك أن مصالحهم هم هي الحق، فكل مصالح غيرهم باطل، أي يجوز حتى قتل كل من يقف في طريق تحقيق الإرادة العليا. وهذا هو جذر كل الاختلافات الكبرى.

فهذا هو الشرك، أن تجعل مع العالم الجسماني عالم آخر لا يمكن البرهنة عليه. ولذلك هو ضرر على الناس، لأنه يؤدي إلى تضارب الرؤى عن الحياة، مما يؤدي إلى جدال لا يمكن تصديقه أو تكذيبه، مما يؤدي إلى اختلاف لا يمكن حله، أي قتال دائم.

أما لو زعم أحد أن السم لا يقتل، فما علينا إلا أن نقوم بتجربة بسيطة لاثبات بطلان دعواه، وإن عاند قلنا له "اشرب السم إن كنت من الصادقين".

فإذن كون الشرك ضرر هو لاعتماده على عالم لا يمكن البرهنة عليه بوجه يتفق عليه عقل الناس عامة.

...-...

(١٦) الأجسام أساس الأحكام.

...-...

(١٧) "وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا" نلاحظ في الآية أمور :

أولا، كونه ذكر "ولن نشرك بربنا أحدا" ثم ذكر هذه الآية، فهذا يدل على أنه قد يكون الانسان موحداً لربه ولكنه يرى أن ربه اتخذ صاحبة وولداً. فالذي يقول بالصاحبة والولد ليس مشرك.

ثانيا، بدأ الأمر بقولهم "وأنه تعالى جد ربنا" فعلمهم بهذا التعالي هو الذي ولّد فيهم نفي كونه اتخذ صاحبة أو ولدا. فما هو هذا التعالي؟ كلمة "جد" تدل على أبي الأب، وعلى الجد الذي هو ضد الهزل واللهو كأن نقول "هذا الإنسان جادّ في عمله"، وعلى الجديد من الأمور كأن نقول "جد في الحقل الفلان كتاب كذا"، وعلى الأمر بالبحث عن شيء كقولنا "جد الكنز"، وعلى العطاء الكثير من الجود كقولنا "جُد بمالك".

والتعالي يستلزم وجود مقارنة، فلا يمكن أن نقول عن شيء أنه أعلى إلا بمقارنته بشيء هو أسفل، وعلى ذلك يكون الأمر هنا في حيز عوالم الخلق الثلاثة، وليس الوجود المطلق، لأنه لا مقارنة معه إذ لا غيره.

و"ربنا" إن كان معناه هو الروح الأعلى، رب الملكوت والآفاق، فما أدرى الناس به ولم يره أحد؟ فكيف يقولون أنه اتخذ صاحبة أو ولد؟ هذا يدل على أمر في عقل الانسان، وهو أنه يُسقط ما يعلم على ما لا يعلم. ودافع الراحة هو لكي يستريح من حيرة الجهل وعذابه، ودافع الكبر هو لكي يشعر أن كل العوالم إنما هي مصبوغة بصبغته. فكأنه يريد أن يقول "من أكبر مني؟ الرب نفسه مثلي".

وهكذا حتى في علاقاتنا مع بعضنا البعض، نريد أن نسقط خبراتنا على كل الناس، فلو تعرضنا للسرقة في بلد ما، فأهل هذه البلدة كلهم يصبحوا في نظرنا سارقين. ولو خدعتنا امرأة فكل النساء شياطين. وهكذا في كل الأمور، لا نريد أن نحيا بنفس جديدة، ونجرب بعقل منفتح وجديد، ولكن نختصر الطريق، فنسقط ما نعلم على ما لا نعلم، أو الأسوأ من هذا وهو أن نسقط ما يعلم الآخرين أو يقولون لنا على ما لا نعلم، الأولى تدل على الكسل والموت، والثانية تدل على أن الرجل قد انمسخ إلى بهيمة.

وجود صاحبة وولد لربنا يدل على أنه محدود ومتحيز، فكون هذا ولدي يلزم أن غيره ليس ولدي، أي غريب عنّي، وبما أنه "كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك" والكل متساويين من حيث الأصل، فدعوى اتخاذ ولد خاص هي إعانة للجناب الرباني.

ما هي الصاحبة؟ أنثى تصاحب. والأنثى تدل على ضدها، أي الذكر، وكونه ذكر فقط يدل على نقص في نفسه يريد أن يكمله بغيره، ولذلك صاحب الأنثى، والعكس كذلك صحيح. والصاحبة أو حتى الصاحب هو أمر خارجي منفصل عن ذاتي، فهناك فرق بين أن أقول "هذا صاحبي" و"هذا من نفسي" فيعني من جسمي، ولساني من جسمي، ولكن ثيابي ليست من جسمي، فهي كالصاحب. أمر خارجي ملازم له. فالذي يحتاج إلى الصاحب هو الناقص في نفسه. ولذلك ترى أهل النور لا يبالون ولو لم يكن لهم ولا صاحب، لأنهم كاملين في أنفسهم فلا يحتاجون إلى أنس خارجي. فعندما نقول أن لربنا صاحبة يدل على أنه ناقص في نفسه. فالصاحبة رمز على النقص الباطني.

وما هو الولد؟ هو من التولد، ولا يقع التولد إلا عند عدم بلوغ التمام في التطور، فكل فكرة تولد فكرة حتى يصبح المشروع كاملاً، والولد بالنسبة لنا هو الوارث والمساند، ولا يطلب الوارث إلا من يموت، ولا المساند إلا من يعجز. فالولد رمز على النقص الظاهري.

ولكن ما الذي يجعل الناس تنسب مثل هذا إلى الروح الأعلى؟ هو تطبيق حقيقة توازي العالمين. أليس كل ما في عالم الآفاق صورة لما في عالم الملكوت؟ فإذن، كما أن للأب صاحبة وولد، فكذلك للرب صاحبة وولد. فحتى لو سرنا على هذا المنطق والمثال، فإن الأب قد يكون له الكثير من النساء والأولاد وليس الأمر محصوراً. وبما أن الأمر مثال، فيجب أن نفهم المعنى العقلي منه لا غير.

كون الكمال في ألا يكون للمرء صاحبة ولا ولدا، فما هي الصاحبة والولد في النفس الإنسانية، إذ من حيث الأجسام لا يمكن إلا اتخاذ الصاحبة والولد إذ بهذا نبقى ونعمل إلى قدر الخلق، فهي رموز على الكمال. الصاحبة أنثى، والأنثى رمز على الأنانية والأخذ، والولد من الأفكار لأنها هي التي تتولد في القلب، والأنانية محلها الأصلي هو الجسم، وتوليد الأفكار يدل على عدم اعتقاد المولد أنه كامل أو أن الكمال محقق، فهو يسعى بأفكاره ليحقق الكمال. مفهوم اتخاذ الصاحبة والولد معناه نفي الجسم والقلب معاً. فلا يبقى إلا الوجود الواحد التام بنفسه. وهنا يجب أن يرسخ الانسان جذره أو قل يلقي بذرة نفسه أو يجعلها تنبت في هذه الأرض المباركة. أي بأن يقيم حياته على التأله.

فنفي الجسم والقلب يدل على ضرورة أن يفهم الانسان الأمر من بدايته الحقيقية، وهي وحدة الوجود. ثم من هنا يبدأ في الفهم. حتى تكون نفسه قد أحاطت بكل شيء. ثم من الوجود إلى الملكوت إلى الأنفس إلى الآفاق.

فهذا هو التعالي، أن تهجر كل المتغيرات والزوجية حتى تنفي كل شيء، وسيبقى الوجود الواحد ويتجلى لك جبراً.

ثالثا، التعليم المهم لنا من نفيه الصاحبة والولد عن الرب المتعالي هو هذا، يجب أن يكون الانسان تام الانشغال الباطني بحيث لا يحتاج إلى أنيس، وأن لا يطلب من المال أكثر مما يحتاجه لنفسه وخاصته، فالتعليم الأول هو الاستقلال، والتعليم الثاني هو عن الحاجة.

لا يحتاج الانسان إلى صحبة إنسان إلا إذا تفرغ ولم يجد ما يشغله، ألا ترى أنك لو كنت منهمكاً في عمل ما لا تبالي بل لا ينصرف خاطرة إلى مسألة الصحبة؟ ولكن إذا جاءت عطلة نهاية الأسبوع، وجلست وحدة، وليس عندك أمر مهم تفعله، فإنك تبدأ تفكر في أصحابك. ففراغ الباطن هو سبب طلب صحبة الظاهر. وأن تجعل سعادتك مرهونة بوجود وحضور الناس، فهذه مخاطرة عظيمة. أما إذا كنت منشغل الباطن دائماً حيث تريد وفي أي وقت تريد، فعندها، لو حضر

الأصحاب النافعين كان بها، وإن لم يحضروا لعذر أو لم ترغب في صحبتهم لجهل فإنك في سلام لأنك سعيد بنفسك. وهذا هو الاستقلال الحقيقي، أن تكون منشغل الباطن بما تحب.

أي فائدة في أن تقتل نفسك بالعمل من أجل أن تبني ما لا تسكن، أو تجمع ما لا ولن تحتاج إليه أبداً؟ أمور المعيشة يجب أن تقدّر، أقول قدّر وليس قتّر فافهم، قدّر ما تحتاج إليه، واعمل على ذلك، ولا تجهد نفسك فيما لا تحتاج إليه. وليكن عملك عن رغبة في العمل نفسه، وليس لأنك تريد مالاً فقط من وراء العمل، فإن الأجير عبد مهما علا أجره كما يقول البعض بحق. أما الحر فهو الذي يعمل أنه يرغب في العمل. الفنان الموسيقي، هل كان سيبدع لو كان يعزف للمال؟ لا توجد لذة نار الحماس في قلب من يعبد المال. المال وجد لاشباع الحاجات وليس ليكون مصدراً للسعادة أو وسيلة للمكابرة.

وكون نفي الصاحبة قبل نفي الولد، يدل على أنه لن يؤمن بمبدأ الكفاف إلا المستقل باطناً. وبعكس المستقل هو المستعبد الفارغ في نفسه، فهذا يريد أن يملأ نفسه بأمر خارجي عنها، ولذلك لن يكف عن طلب الأمور الخارجية، لأنه يؤمل أنه إذا أصبح عنده أكثر فإن نفسه ستمتلئ بها، فمثله كمن يريد أن يملأ كأساً بالماء عن طريق رش الماَء على سطح الكوب الخارجي، هل يمتلئ أبداً؟ ولذلك سيعذب هؤلاء في كل حياتهم. لأنهم يريدون أن يشبعوا بطونهم عن طريق بلع الهواء. سيظلوا يبلعون إلى أن يموتوا من الجوع.

عرفنا أنه لن يؤمن بمبدأ الحاجة وفقط إلا المستقل باطنياً، فماذا قبل الاستقلال، أي ما الذي يؤدي إليه؟ كل ما علينا هو أن ننظر إلى ما ذكر قبل هذه الآية والظاهر هو أمران، دراسة القرآن والتأمل في الوحدة العلية. ففي كلمة واحدة، التأمل في الخلق والخالق. هذا هو الذي يستطيع أن يكون حراً فرحاً.

فهل يمكن أن يكون يوجد إنسان يتنفس ولا يكون له باب إلى الخلق والخالق؟ استحالة مطلقة، لأنه هو نفسه يعبر عن الخلق كله، إذ في أي شيء يوجد كل شيء، وأيضاً النفس الانسانية هي مجمع العوالم كلها، والخالق "وهو معكم أينما كنتم" و"فأينما تولوا فثم وجه الله" و "هو الأول والآخر والظاهر والباطن" فالتأمل في الخلق والخالق هو أصل الاستقلال.

فماذا قبل التأمل؟ الرغبة في الفرحة الدائمة التي لا تنقطع، وأن تبلغ من الكبر ما يجعل نفسك لا حد لها، هذه الرغبة هي جذر التأمل. فنحن نريد أن نشعر بالرضا الدائم، ولذلك نرغب في كل ما قد يجعلنا في هذا الرضا، وعندما نعلمأن التأمل في الخلق والخالق هو السبيل الوحيد اليقيني والمضمون والأحسن والأيسر، فإننا سنسلكه إذ لا أحسن منه، وعندما نحيا بالتأمل وعليه سنستقل ولا نطلب الفرحة من الأموات. هذه هي الحياة الأبدية بتفصيلها.

ولهذا فصّل هذا الأمر في سورة الجن المباركة وعلى لسانهم، لأن الجني المنعزل عن الناس بالأصل، الذي يعتبره العوام مجنوناً لأن عقله يخالف عقولهم، يحيا في الجنة الخالدة التي هي المعرفة الراقية.

...-...

(١٨) "وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا"، من هو هذا السفيه، وما قوله؟
بما أن الكلام عن الجن، و"سفيهنا" مفرد، وليست "سفهائنا" حتى تنصرف إلى كل سفهاء الجن، وإبليس من الجن "كان من الجن ففسق"، فيغب أن هذا السفيه هو إبليس. والسفيه ضد الفقيه، فهو الذي لا يفهم حكم الله، أي جوهر نفسه وطبيعة خلقه، فما علاقة هذا بإبليس؟

إن الوجود المطلق، أي النفس المتعالية، الخالق، كان وحده، وكل شيء في غيب علمه، ككون الصور في باطن عقلك وليست ظاهرة في مخيلتك. أي مصداق قوله "هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم". ثم وقع أمر، لا أعرف من أين وقع وليس ثم غيره، ولا أفهم "ثم" ماذا تعني في الحقيقة إذ لا حركة ولا زمن ولا قبل ولا بعد، ولكن لا يوجد وسيلة أخرى في تعبير عقولنا الذي يتبع التقسيم والمرحلية. فإذا، ثم وقع أمر، من بعده، تحقق مصداق قوله "هو الذي خلق السموات والأرض" فما الذي جعل النفس المتعالية تخلق؟

يقول "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"، ومعلوم أن العمل تسبقه فكرة، تسبقها رغبة، تسبقها شعور بالنقص، يسبقه تصور للكمال. فلا حركة إلا بدافع رغبة، فالسكون العام قبل الخلق قد تغير منذ حدوث رغبة في الخالق، وهي رغبته في أن يُعبَد. والأنانية هي عندما يرغب أحد لنفسه أمراً خاصة لو كان على حساب غيره. وهذه هي الأنانية الأولى، وبما أنه ليس ثم إلا جوهر الخالق، فالرغبة التي حركت أمر الخلق هي من جوهر الخالق، وبما أن هذه الرغبة أنانية فإذاً الأنانية جوهر الخالق "إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني".

وبما أن الخلق يتم في الخالق، وهل يوجد غيره حتى يخلق الخلق هناك؟ وهل له حد ينتهي إليه حتى نفهم أن الخلق منفصل وخارج عنه؟ فالخلق من الخالق كالخيال من المتخيّل، وبما أنه ليس ثم إلا جوهره وهو الأنانية، فالخلق يستمد تحققه من جوهر خالقه، فجوهر الخلق كذلك هو الأنانية.

وبما أن جوهر الخالق هو الوجود المحض المطلق اللانهائي، فهو في راحة تامة لأنه لا يتحرك من مكان إلى مكان، ولا ينازعه أحد غيره، فهو في راحة تامة، وهذه الراحة التامة من جوهره كذلك، وكذلك هو الكبير التام، لأنه لا حد له، وماذا يحد الوجود؟ فالكبر التام من جوهره.

فهذا هو جوهر الخالق: الراحة التامة، الكبر التام، الأنانية التامة، وهذا الجوهر هو هو في الخلق، في الإنسان خاصة.

وبما أن الخالق يرغب في عبادة الناس له، بسبب الأنانية، والإنسان يرغب كذلك في عبادة كل شيء له، فمن شابه أباه ما ظلم، وكذلك سبب الأنانية، فالطرفين لا يمكن إلا أن يتنازل أحدهم عن أنانيته حتى يرضى الطرف الآخر. وهنا يظهر إبليس.

إبليس أراد أن يغير جوهر الخالق، أي يجعله يتنازل عن أنانيته، ويثبت بذلك أنانية الخلق، فالبمثال نقول أن إبليس ثار على الملك، وأراد أن يخلعه من على عرشه، ويجعل الإنسان يجلس على العرش ويجعل الملك خادم له.

وهنا سفاهة إبليس بالنسبة لهؤلاء الجن، لأنه لم يعقل أن الخالق لا يمكن أن يغير من جوهره قط، وحتى لو غير فالخلق كله سيتغير معه، فالخلق لم يصبح أناني إلا لأنه هو الذي خلقه، فلو أصبح غير أناني فكذلك الخلق كله سيصبح غير أناني، وعندها سيقوم إبليس بنفس ما قام به من قبل ولكن بالعكس. ولكن لو تغير الخلق فهذا لن يغير الخالق، وذها ما يمكن أن يتم لا غير.

فقول إبليس يشبه هذا، "أيها الخلق، لو تمردتم كلكم على ما يأمر به الخالق، وخالفتم رغبته التي بها خلقكم، فإنه سوف يعلم أن رغبته لن تتحقق، وثم سوف يفني الخلق كله، ونعود إلى غيب علمه مرة أخرى، حيث الراحة التامة والكبر الام، حيث لا نشعر شيء إلا الحضور في نفسه العلية، ولكن لو أطعتم إرادته وعبدتوه فسوف يبقيكم في هذا العالم القاسي كله، ومع ذلك لن تنالوا إلا أن تجعلوه يرى نفسه فيكم، وإننا من فرط حبنا للخالق نريده أن يتخلى عن أنانيته، وفأعينوني على ذلك"

والشطط في هذا هو أنه غفل عن أن الخالق لن يهمه أسعد الناس أم شقوا، فهو يرى نفسه في مرآة نفوسهم على أية حال كانوا، فهو في فرحة خالدة لتحقق رغبته. ولكن سعادة الناس وشقائهم مرهون بهم هم وحدهم. "فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه" "يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم" "ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه"، فلو فعل الناس ما فعلوا فلن يثني أحد الخالق عن ما في نفسه. ولذلك يجب أن لا نبالي إلا باصلاح أنفسنا إن أردنا السعادة. ولكن لو تفرقنا وتقاتلنا فإنما ضرر هذا سيقع بنا وعلينا وحدنا. "وما ربك بظلام للعبيد".

الذين يظنون أن أعمالهم تؤثر في الله فهؤلاء من ذرية إبليس، ولكن بني آدم هم الذين يعلمون أن النفس الإنسانية هي الأول والآخر والظاهر والباطن، فإن طابت طابت الحياة، وإن خبثت خبثت الحياة، ولا يجب أن يهمنا غير أنفسنا لأنه ليس لنا غيرها، فالناس ليس لهم إلا بعضهم بعضا، ويجب أن ندرك أن فهمنا لحقيقة هذا الذي ذكرت هو أول الحياة الطيبة وبذرة الشجرة المباركة.

...-...

(١٩) كيف يتجرأ مخلوق على أن يقول على الله شططاً؟ هل يستطيع أحد أن يقول كلام سوء على ملك من البشر في حضرته أو حتى في غيابه؟ لو قال رجل كلمة سوء، أو حتى لو وصف حقيقة واقعة في بعض الأحيان، عن ملك من البشر، في شارع من شوارع المدينة، فإنه معرض للقتل أو

السجن. وهذا فضلا عن أنه لو قال ذلك في مجلس الملك، فلعله سيسلخ جلده وهو حي. كيف يستطيع أن يقول أحد من المخلوقين كلمة باطل على الله؟

إما أن الله ليس موجود فلا يستطيع أن يرد على صاحب كلمة السوء، فالمعدوم لا يتأثر. وإما أن الله ليس حاضر في كل مكان، فالغائب أيضاً كالمعدوم لا يتأثر. وإما أن الله لا يبالي بالناس، فهل يبالي الشيخ الكبير بكلام طفل غبي؟! وإما أن الله يسمح لكل إنسان أن يعبّر عن نفسه كما يشاء.

الاحتمال الأول مردود، والثاني مردود، والثالث مردود لأنه لو كان لا يبالي لما أنزل الكتاب، فالجواب هو الرابع.

فالله نفسه لا يمسّ حرية الإنسان في التعبير عن رأيه، حتى لو كان في ذلك مسّ لنفسه العلية. فيسبه الناس ويرزقهم، ولا يرضى أن يرهب فكرهم. فلماذا؟

الإنسان يفكّر في باطن قلبه، وقد يعتنق فكرة ولكنه لا يجاهر بها، فكم من رجل يظنه الناس من المؤمنين وهو في قلبه من المنافقين أو الملحدين؟! وهذه الفكرة المقبولة المكبوتة إما أنها صحيحة وإما أنها خاطئة، أو إما أنها حسنة وإما أنه يوجد أحسن منها. فاذا لم يخرج الانسان هذه الفكرة من حيز السرية إلى العلنية فإنه لن يستطيع تصحيحها أو تطويرها. بل ستظل كالمرض الذي لا يذهب فيه المريض إلى الطبيب ليكشف عن نفسه، وبذلك يصحى في يوم من الأيام وإذا هو في حالة خطيرة من المرض لا يرجى شفاءها. وبالعكس من ذلك لو عبّر الإنسان دائماً عن كل فكرة تمر في نفسه مهما كانت، فإنه سيراها منفصلة عنه، وبذلك تتضح له الرؤية، وسيسمع انفعال الناس وآراءهم مما يزيده تبصراً وتطوراً وتعمقاً.

ثم إن الفكر المكبوت حتى لو كان هو الفكر المقدس نفسه، فإنه يسبب عقد نفسية وأمراض قلبية، لأن التفرقة بين الحياة الباطنية والحياة الاجتماعية تجعل الشخص يحيا بشخصيتين، والانسان يحب نفسه وحياته الباطنية أكثر من حبّه لحياته الاجتماعية، فهو يريد أن يكون دائماً بشخصية واحدة ولكنه لا يستطيع لأنه لا يستطيع أن يعبّر عن نفسه بدون أن يقتل أو يلعن. ولذلك قال القرآن عن المنافقين أصحاب الشخصيتين "في قلوبهم مرض" وحتى عندما قالوا ظاهراً "نشهد إنك لرسول الله" قال الله يرد عليهم "والله يشهد أن المنافقين لكاذبون" حتى عندما يقولون الحق ظاهراً فهو باطل من حيث إنه ليس ما في باطنهم. ولو أنهم قالوا "نشهد أنك لست رسول الله" لقال القرآن، "والله يشهد أنهم لصادقون" بالرغم أنهم كاذبون. فالعبرة بما في الباطن.

ولذلك يسمح الله لكل أحد أن يعبّر عن باطنه مهما كان، لأنها الطريق الأحسن للاصلاح والتطوير. وكم من فكرة تبدو لصاحبها أنها راسخة وجميلة وقوية عندما تكون في معزل في قلبه، حتى إذا أظهرها ظهر له أنها من أسخف ما أنتجه العقل البشري.

لماذا إذا أصاب الانسان مرض في جسمه، حتى لو كان السرطان نفسه والعياذ بالله، فإننا نرى توجّه كل الناس له بالحب والرعاية، حتى أعداءه ينسون عداوتهم في أكثر الأحيان، وأكثر من ذلك أنه كلما اشتد المرض كان اشتداد الحب له أكثر، لماذا هذا في الأمراض الجسمانية، ونحن نعلم يقينا أن الجسم سيموت ويأكله الدود، حتى إذا عمّر الإنسان ألف سنة، ولكن نجد أن الإنسان قد تحسن عنده فكرة جزئية بسيطة، فنجد أهله يريدون أن يرجموه، وأصحابه يتركوه، والمجتمع ينبذوه؟ هذا في أكثر الأحيان، حتى لو لم يعمل بمقتضى الفكرة. ولكن مجرد استحسان لها. فدع عنك له اعتنق طريقة كاملة في دين أو مذهب أو منهج.

كما أننا نفصل بين المرض والجسم المريض وشخصه، لماذا لا نستطيع أن نفصل بين الفكر المريض وشخص المفكّر؟ لأن المرض الجسماني ليس اختياري، ولكن اعتناق فكرة عمل اختياري. فالذي تصدمه سيارة لا حول له ولا قوة، ولكن الذي يريد أن يثور على عقائد مجتمعه فهذا عمل اختياري. والثواب والعقاب إنما هما على الاختيار. وهذا لأن الاختيار يعبّر عن قلب الإنسان الخفي. فنحن لا نرى القلوب، ولكننا نحاول أن نعرف ما بداخلها عن طريق ما يخرج منها، فكل كأس يخرج ما فيه، فقد لا نرى الوعاء ولكن نرى الماء فنعلم أن الوعاء وعاء للماء. فمن الخطأ المساواة بين المرض الجسماني والمرض الفكري تمام المساواة. فالأول في أكثر الأحيان قهري والثاني اختياري.

ولكن الملاحظة تظهر أن الكثير من الناس يحملون أفكاراً مريضة ولكن لا خيار لهم فيها، فهي قد زرعت فيهم منذ الصغر فأصبحت كالنقش على الحجر، فليس من تمام العدل أن نساوي بين هؤلاء وبين من يختارون الفكر المريض، فكيف نفرق بينهم؟ من كان لا يؤمن بالفكرة ثم أصبح يؤمن بها فهو من الذين اختاروا. فكيف نعرف هؤلاء؟ من كان عنده دليل على فكرته فهو فهم. ولكن هذه ليست قاعدة مطردة دائماً، فحتى الذين يتربون على فكرة يعرفون لها بعض الأدلة، فهذا ليس كاشفاً تماماً.

دعنا نسأل قبل ذلك، ما معنى فكرة مريضة؟ إذ قد تكون الفكرة مريضة لشخص ومقدسة لآخر، كالأفكار العنصرية، فهي حقيقة طبيعية تاريخية لا جدال في صحتها عند فريق، وهي دليل خسة وحقارة عند فريق آخر. وهذا يعود بنا إلى مسألة المعيار. وهنا المعيار هو القرآن. فكل من كانت أفكاره تخالف الأفكار التي يعلمها القرآن فهي أفكار مريضة، أي ليست تامة وكاملة. وأما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن فالمعيار هو الحياة الجسمانية الاجتماعية، أي توفير وتسهيل سبل المعيشة. فكل فكرة تمنع المعيشة أو تصعبها فهي فكرة مريضة. والقرآن نفسه يجعل هذا معيار لصحة الفكرة بين الناس عامة. ولهذا يفرق بين "يا أيها الناس" و "يا أيها الذين ءامنوا" فالقرآن يشرع على درجتين، درجة الناس عامة وهي الحياة الجسمانية، ودرجة العلماء وهي الحياة الفكرية، ولا يمكن أن تصعد الدرجة الثانية إلا إذا مررت بالأولى. ولذلك جعل الله المعيشة قبل الجنة في مثل آدم.

الآية يتبين لنا الفكرة التي يمكن التسامح في اعتناقها، والفكرة التي يجب مقاتلها. فكل فكرة تؤدي إلى منع المعيشة عن إنسان وتصعيب المعيشة عليه فهي فكرة يجب قتلها فوراً، ولا يمكن التسامح في اعتناقها أو العمل بمقتضاها. لأن الحياة الجسمية قبل الحياة الروحية. وهل يتأمل الميت ؟! ولكن في المسائل العلمية الظنية غالباً فلا يجوز لعاقل أن يعادي صاحبها أبداً. فهي من حيز الحياة الفكرة فيجب أن تعامل على هذا الأساس، والقتال فيها هو المبارزة بالأدلة، أو قل أن نبحث سوياً عن الجواب.

فمثلاً إذا قال أحدهم "يجب أن نغزو الناس ونستعبدهم" فهذا يجب عقابه فوراً، لأنه يعكر صفو المعيشة على الشعب المغزو مما يمنعه من الحياة الروحية ويضع العراقيل في سبيلها. ولكن لو قال أحدهم "إن الله فقير ونحن أغنياء" فيجب إن شئنا أن نباحثه ونجادله بالتي هي أحسن، فإن أبلى فهو وما اعتقد، فإن الوبال عليه وحده إذ سيمنعه ذلك من الدعاء ويفقد بذلك بركات السماء.

وبعد هذا يتبين لنا لماذا يسكت الله عن الذين يقولون السوء في نفسه العلية، لأن هذا سيؤدي إلى اصلاحهم وتطويرهم، ولأن كلامهم هذا لن يضر الله شيئاً وإنما يضرون أنفسهم ولن يضروا مجتمعاتهم بسفاهتهم هذه.

ولكن هل يعني هذا افتراق القلب عن الجسم، أي أليست الأفكار القلبية ستظهر بحركات جسمية ولو بعد حين؟ نعم، كل عمل فكري يؤدي إلى عمل جسمي قليلاً أو كثيراً، عاجلاً أم آجلاً، وكذلك كل عمل جسمي سيؤدي إلى تغيير فكري، شعورياً أو لاشعورياً، عاجلاً أم آجلاً. فعندما تصبح الفكرة المريضة في حيز الجسم عندها يكون العقاب، وليس قبل ذلك.

فمثلاً، لو قال أحدهم "إن الله فقير ونحن أغنياء" فيجب تركه، ولكن لو جاء بعد حين وتطورت الفكرة حتى وصلت إلى حيز العمل الجسماني، فقام الرجل وسرق، وزعم أنه يريد أن يطعم أبناءه لأن الله فقير لا يستطيع أن يرزقه، فعندها لو لم يكن حقاً محتاجاً وكان معتدياً ظاراً فيجب أن يعاقب على عمله، لا على فكرته. وقل مثل ذلك في الذي لا يؤمن بالآخرة، فيقوم ويعتدي عل بالناس لأنه يقول أنه لن يحاسب فليفعل ما يشاء، فهذا يعاقب على عمله المعتدي وليس على عقله الغير سوي.

فاذن الفكرة المريضة تناقش بالفكر الصحيح ما دامت في حيز الفكر والكلام، ولكن إذا أضرت بالمجتمع فيعاقب الشخص على عمله المعتدي فقط. فلا عقاب جسمي على أمر فكري مطلقاً. وآية الطغيان اقرار مثل هذه العقوبات.

...-...

(٢٠) لماذا يقول بعض الناس السوء على الله، كمن ينفي وجوده أو يطعن في صفاته؟ الجواب بسيط. لأنه يريد أن يشعر بالكبر. وهل هناك أكبر من الذي يحقّر العلي الكبير؟ ومعلوم أن دافع الكبر دافع أصيل في الانسان، ولإرضائه يقوم الانسان بأمور شتى، وأن هذه الأمور سب الله.

ولأنه يعلم في قرارة نفسه أن الله لن يعاقبه فهو يستغل هذه الحقيقة لكي يميز نفسه عن الناس الأغبياء الذين يؤمنون بالله، ولكي يشعر أنه قوي وعظيم يستطيع أن يسب الله، من أقوى مني ؟

لو كان حقاً لا يريد أن يظهر للناس فتوته لما كان يبالي لو عرف الناس طعنه أو لم يعرفوا، وأيضاً لما كان شديد الاستيقان بصحة كلامه، فما أدراه ما الحقيقة حتى يكون على هذه الدرجة ما اليقين؟ لعله إذا سافر إلى خارج هذا الكون سيجد الله هناك؟ لعل ولعل، فكونه يظهر شدة اليقين في إلحاده وطعنه فهذا يدل على أنه إنما يذبح هذه الفكرة قرباناً لدافع كبره.

وهذا يظهر لنا أن الانسان إذا أمن العقوبة سارع إلى ما يشاء. وبما أن العقوبة لا يحدّدها الانسان على نفسه، وإنما يوفقها عليه غيره، فيقولون له "إذا قلت كذا فإنك ستعذب للأبد" أو "إذا فعلت كذا فإنك ستسجن للأبد"، فالعقوبة حادثة، والأصل إذا يكون أن الانسان حر يفعل ما يشاء، وإنما الناس هي التي تستعبد الناس بدعاوي كثيرة، فمنهم من يستطيع أن يستعبد بقوته وآخر يستعين بخياله، فاذن الانسان حر. وإنما العبد هو حرّ لا يريد أن يموت في سبيل حريته، لأن الميت في ظنّه أشد عبودية من العبد الحي، لأن الميت عبد للعدم.

ومن قال أن "الموت عدم"؟ إما أنه هو نفسه جرّب الموت، ورجع فعرف أنه عدم، وهذا باطل، إذ أليس من المفترض أنه إذا مات انعدم، فكيف رجع إذاً؟ وإما أن غيره قال له أن الموت عدم، فهذا الغير، هل جرب الموت بنفسه، ولو جرّب لقلنا فيه كما قلنا في الأول، ولو لم يجرب فهو مختلق كذاب يتكلم بجهل. فالمستيقن هو أن الموت لا نعرف ما هو.

ولكن أتساءل: هل هناك عدم؟ ما معنى "هناك"؟ الوجود مطلق محض، فأين العدم؟ ليس هذا هو المقصود من العدم، ولكن المقصود هو انعدام الحياة. ولكن ما هي "الحياة" ؟ هل هي الوعي؟ إذن المجنون ميت ! هل هي الشعور بما حولك ؟ إذاً الأعمى المشلول ميت، وإذاً النائم ميت. هل هي الشعور بالتحقق؟ فماذا عن النائم الذي لا يحلم، هل يكون ميت في هذه اللحظة؟ هل هي وجود الإرادة؟ إذاً فالمستعبد ميت. التساؤل عظيم والبحث فيه أعظم، فلا تلقي الأمور هكذا. ولكن دقق النظر.

ومن الأمور التي تثبتها ظاهرة سب الله أن الإنسان لا يبالي بغير نفسه، فإن كان قد سبّ صاحب الدرجة العليا، فمن بقي لكي يسبّه؟ ومعلوم أن السب احتقار، أي أن الذي يسب يشعر أنه أعلى من الذي يسبه لدرجة أنه يريد أن يجاهر بهذا الشعور، فيقدم على الطعن فيه.

من أحسن الوسائل التي يستعملها بعض الناس لكي يحققوا رغباتهم في الراحة والكبر، وحكم الناس واستعبادهم هي الادعاء أن لله حقوق على الانسان العبد. وبالطبع دائماً نرى أن حقوق الله المزعومة-تعالى الله عن ذلك-دائماً تصب في مصلحة الناس الذي يعلّمون هذه الحقوق. فمثلاً نرى البعض يقولون أن لله حق في مال العبد، وهو نسبة معينة من المال، ثم نرى أن هذا المال يجب أن يسلّم إلى هؤلاء الرجال. ويبررون لذلك بأنوا ع التبريرات. فأياً يكن، المهم أن المال ذهب

إليهم، ولم يعجز العقل يوماً عن إيجاد الحجج النقلية والعقلية لكي يثبت ما يريده الإنسان. بل إن الدليل النقلي الواحد يؤيد الشيء ونقيضه، والدليل العقلي الواحد يؤيد الشيء ونقيضه، وما ثبت بالجدل فبالجدل ينقض.

فمن أسهل الطرق لاستعباد الناس هو أن تدعي أن الله هو الذي يستعبدهم وما أنت إلا وسيط ليس لك من الأمر شيء. وواله إن هؤلاء لا يبالون لا بالله ولا بالناس، إنما يريدون مثل باقي الناس أن يحققوا شعورهم بالكبر، وقبل ذلك أن يرتاحوا بخدمة الناس لهم.

ومن هنا نفهم سبب سكوت الله عن الذين يسبونه، لأنهم في حقيقة الأمر يخدمونه، نعم، لأنهم يظهرون حقيقة الإنسان، وما خلق الخالق إلا لكي يسعد الإنسان وهو أحب إليه من شقائهم. أما هو نفسه فراض بالخلق أيا كان حاله. ولذلك عندما يقدم أحد على سب الله فهو في جوهر القول يبين هذه الحقيقة الكبرى، حقيقة أن الله لن يتضرر إن شقي الناس، فعلى الناس إن أرادت السعادة والسلام أن تسعى لذلك بنفسها، دون زعم أن لله حقوقاً وما أشبه "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

الشر الوحيد الذي في العالم هو العقل الذي لا يرى الخير في هذا الشر. هل كان يوسف سيصبح عزيز مصر لولا أن إخوته ألقوه في غيابت الجب عارياً؟ "بيده الخير".

...-...

(٢١) نرى أن السفيه كان يقول "شططا"، وهذه الكلمة يمكن أن تتجزأ إلى كلمتين، "شط" و "طا". وهذه الكلمة هي التي تعبر عن مقولة السفيه، فمعناها فيها كامن، وإنما يتكشف بالتحليل.

"شط" هي من الجذر الذي يكون كلمة "شاطىء"، فهي تشير إلى الحد وطرف الشيء، وتعني أيضاً الخروج الزائد عن الحد، كأن نقول "شط فلان في قوله". فاذا تصورنا معرفة الحق كالبحر، فإن صاحب الشط هو الذي لا يبرح التراب.

"طا" ترمز إلى الطوي، من "طه". طي السفر، طي المراحل، فهي تشير إلى السير إلى الشيء وتجاوز المراحل الموصلة إلى هذه الغاية.

والآن يظهر المعنى الجوهري لمقولة السفيه، وهي أنه لم يكمل التفكير ويتعمق في الدراسة والبحث. وهذه هي سمة كل المقولات السفيهة على مر العصور، ومهما اختلفت المعارف. فدائماً الذين ليس لهم النشاط أو الجرأة على اكمال سلسلة التفكير والبناء، وليس لهم القوة والاقدام لكي يغوصوا في أعماق الأمور ويعايشوا ظلمات الأعماق لعلهم يجدون الكنز في غياهب الظلمات، هؤلاء هم أصحاب كل المقولات السفيهة دائماً، ولا تتصور سفاهة إلا من شخص لم يكمل التفكير ولم يتعمق في البحث.

لماذا لم يكمل الانسان سلسلة التفكير والتحليل؟ لأنه يخشى أن يصل إلى عكس ما يرغب. فالذي يعتقد أمراً واعتاد عليه لا يمكن إلا أن لا يحب تحليل الأمور. فللعادة سلطان عجيب، حتى إنه ليطال الذي يعلم أنه إنما يشعر بالشعور المعين من أجل العادة. ولا يغلب العادة إلا الاعتياد على عادة أخرى تغلبها.

وترى هذا شائعاً بين عامة الناس، خاصة أصحاب الطرق الدينية أو الفكرية الثابتة، أي التي فرغ قادتها من تدوين كل شيء، ولم يبق إلا الابتياع، باختصار كل من يقول بذم الابتداع ومدح الاتباع. ولذلك يكثر الشطط فيهم ويفشو كالنار في الهشيم.

جوهر الوثنية عدم التحليل، لأن الوثنية ثبات والتحليل حركة وتطوير، فعندما يقول الله "كل شيء هالك إلا وجهه" فإنه يعلم دوام التحليل، وستتعجب من عظمة الأمور التي ستراها إذا أخذت بهذه الطريقة في الحياة. ولذلك يكون صاحب هذه الطريقة حي بكل معنى الكلمة، لأنه دائم الملاحظة دائم التفكير ودائم التطوير.

لماذا يخشى الانسان من التعمق؟ لأنه يخشى أن يضيع أو يغرق فيموت. ولكن هل يمكن أصلاً أن يضيع أحد في أمور العلم كما قد يضيع الجسم في عالم الجسم؟ لا يمكن هذا أبداً. وكل شعور بالضياع الفكري هو دليل على أن هذا الرجل يمر بألم المخاض الذي سيولد ولداً جديداً ملىء بالحياة. لا يمكن للذي يحيا كل وقته بالتأمل أن يضيع. أما إن كان يقصد الناس بالضياع الحيرة بين الاختيارات، فهذا ليس ضياع أصلاً. كالذي تقدم له سبعة أصناف من الطعام، هل يعتبر ضائعاً أم غنياً؟ فليأكل ما يناسبه إذاً وليحمد الله.

ثم إن كان النبي نفسه يقول "لا أدري ما يفعل بي ولا بكم" وَ "إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين" فمن هذا الذي يريد القطع اليقيني في كل شيء؟

من أعلم المخلوقات أعلمهم بالاحتمالات والدلالات والاستدلالات. وطالب العلم لا يموت إلا في حالة واحدة. عندما يكفّ عن طلب العلم. أما إذا كان دائم البحث فكيف يموت؟ وهل الباحث المتحرك ميت؟ أليس الميت من لا يتحرك؟

أما السفهاء من الناس فإنهم سيمّون دوام البحث والتعمق بالسوء، ويخوفون الأنعام من الموت والكفر والغرق والضلال، فهذا لأنهم يجعلون كل من يصل إلى غير ما عندهم وكأنه مات. فهو حكم متميز لأبعد الدرجات. فهم كالطفل الذي يرى رجلاً يُخيّر بين لعبة وكتاب، فيختار هذا الرجل الكتاب. فيقول الطفل "انظروا إلى هذا الغبي كيف ترك اللعبة من أجل حبر على ورق" وما هذا إلا لأن الطفل لا يرى إلا نفسه، ولا يقيس حسن الشيء وقبحه إلا بحسب ما يراه هو ووصل إليه هو.

ولا يخفى أن دوام البحث والترقي خطر على فرعون وهامان وقارون، إذ إن أهم أوتاد الجبل الفرعوني هو جهل الناس وسفاهتهم، فشتان بين إقناع الانسان أن يفعل أمر وبين ضرب البهيمة

لتفعله. وشتان بين أن تقنع عاقلا أن يبقى في المجتمع وبين أن تخوف الغنمة من أن تشذ عن الجماعة فيأكلها الذئب، لأن من شذ شذ في النار. وكأن الأنبياء كلهم شيء غير شذوذ عن الجماعة. لا جماعة غير الاجتماع على الدراسة، وكل ما عدى ذلك استنعام.

تغيير الأفكار يؤدي إلى تغيير الغايات ، وتغيير الغايات يؤدي إلى تغيير الرغبات، وتغيير الرغبات يؤدي إلى تغيير الأعمال، وتغيير الأعمال يعني تغيير أنظمة الدين والحكم، ولا هامان ولا فرعون يريدون ذلك. فيجب أن يحاربوا كل تغيير للأفكار بكل وسيلة ممكنة.

الكمال أن ترى الوحدة في الكثرة، والحياة في القصاص، والجماعة في الخلوة، وكذلك أن ترى الثبات في التطوير، فالثابت فاني، والمتطور ثابت. لأن الذي يثبت يتناقص، أما الذي يتطور فإنه ثابت في الوجود، وهل يتطور المعدوم؟

فإذن من أراد أن لا يكون سفيهاً، بل أن يكون عاقلاً تماماً، فليبحث دائماً، ويسير في سلسلة التفكير في أي أمر من الأمور إلى أماكن هو نفسه لم يكن يعرفها من قبل، ويتعمق في جذور الأمور، فإن الفكر هو أن تبحث عن الجذر. ثم بعد ذلك يطوّر ما يرى إلى الأنفع للناس، أي ما يجلب راحة أكثر وكبر أكبر.

...-...

(٢٢) "وأنا ظننا أن لن تقول الإنسان والجن على الله كذبا" ما هو قول الكذب على الله؟ وصفه بما ليس حق واقعي، تحريم أمر باسمه وهو لم يحرمه، الادعاء بتلقي أمر منه كالوحي وهو لم يوحي إليه بشيء.

...-...

(٢٣) هل المحرمات في الدين مرتبطة بعلّة بحيث أن هذه العلة هي التي بسبب تحققها جعل هذا الأمر محرم، أم أن المحرم محرم ولا يجوز البحث أو السؤال؟

أما أن تكون الأمور في دين القرآن هكذا ولا سبب فهذا ما لم يوجد حتى في مبدأ الوحدانية واليوم الآخر نفسه، فإن الله يعمل على اقناع الناس بشتى أنواع الحجج، فمثلاً يقول "وماذا عليهم لو ءامنوا بالله واليوم الآخر" فإن ءامنا باليوم والآخر وكان موجود فعلاً فإننا سندخل الجنة، ولو كان الأمر باطل فلن ندخل النار بسبب إيماننا بوجود الجنة والنار، فالايمان بالآخرة فوز على كلا الوجهين، سواء وجد أم لم يوجد. وهكذا من أول الجذور والأصول حتى الفروع لا يوجد شيء إلا وله سبب وعليه برهان.

وفي الأحكام مثلاً، عندما يحرّم، بحسب مبدأ الضرر الغالب، الخمر والميسر، فإنه لا يقول "لا تشربوا لا تلعبوا"، ولكن يبين أن الضرر أكثر من النفع، وأنهم مجلبة للعداوة والبغضاء بين الناس، وهكذا.

فبكل يقين يمكن أن نعلم أن كل العقائد والأحكام مبنية على علل ومن أسباب ولها غايات وعليها برهان.

ولكن هذه العلل كيف يمكن أن نستنبطها؟ فمثلاً تحريم لحم الخنزير، فلو فهمناه على معناه الظاهر وهو هذا الحيوان الذي اصطلح الناس على تسميته خنزيراً، ثم فرضنا أن هذا الحيوان هو ما يعنيه الله بلفظ "خنزير"، فإننا سنتساءل عن سبب تحريم لحمه.

ويجب أن نحتاط ونتعمق أثناء البحث عن مثل هذه الأسباب، وننقدها أشد النقد، لأن الذي سيبنى على كون أمراً ما سبباً للتحريم هو أن هذا الأمر نفسه كلما توفر في أمر آخر فإنه ينسحب عليه التحريم، وكذلك إذا استطعنا أن نعالج هذا السبب ونمنع تأثيره فإن التحريم سيرفع عن الأمر ويصبح حلالاً.

نعود إلى مثل لحم الخنزير الشهير، فإذا سألنا عن علة تحريمه سنجد أجوبة عدة: منهم من يقول "لأنه يعدم الغيرة، وانظر إلى البلاد الأوروبية التي تأكله كيف انعدمت الغيرة فيهم. فخصائص المأكول تنتقل إلى الآكل" وهذا هو الجواب الرئيسي المعتمد عند الغالبية من العقلاء، فدعونا ننقد هذا الدليل حتى نرى مقدار قولته.

هذا الدليل قائم على مقولة "خصائص المأكول تنتقل إلى الآكل"، فهل هذا صحيح دائماً؟ لو كان هذا صحيحاً فيجب أن نجيز أكل لحم الكلاب في العالم العربي لعل الوفاء ينتشر بينهم. ولو كان هذا صحيحاً لجاز أكل لحم الخنزير إذا شفعناه بلحم الديك لأنه شديد الغيرة، وبذلك تتعادل الخاصيتين وتلغي إحداهما الأخرى، فالخنزير يجعل الآكل عديم الغيرة والديك يجعله شديد الغيرة، وبذلك يصبح الانسان كما كان قبل الأكل من حيث الخصائص الخلقية. ثم مَن مِن الناس لا يأكل لحم الأنعام، كالغنم والبقر، كالأنبياء وغيرهم، فلم نسمع قط أحد يقول أن النبي أو العالم يصبح بهيمة إذا أكل لحم البهائم، فلماذا لم تنتقل خصائص الأنعام إلى آكليها، وبذلك يصبحوا كلهم ينطبق عليهم قوله تعالى "إن هم إلا كالأنعام".

ثم يكفي أن نجد شخصاً واحداً يأكل الخنزير بشحمه ولحمه ومع ذلك يكون غيوراً على عائلته حتى تسقط حجية هذا الدليل تماماً. ولا أظن هذا صعباً.

ومن المعلوم في علم النفس الإنسانية أن المشاعر، كالغضب والغيرة، هي نتيجة الأفكار، فالغيرة تنبع من العقل وليس من البطن.وهذه من الأوليات البديهية، أن الشعور ثمرة الفكر، أي شعور كان سواء حب أو كره أو غيرة أو غير ذلك.

وهل هذه الخصائص تنتقل من أكلة واحدة؟ فهل لو أكل إنسان لحم الخنزير مرة واحدة ولأي سبب كان، سواء ضرورة أو غفلة أو تجربة، فهل سيرجع إلى بيته فوراً ويأذن لجاره بأن يساكن أخته؟ لو كان هذا صحيحاً لوجب تحريم الخنزير في كل وقت حتى الضرورة، ولو لم يكن صحيحاً فيجوز إذاً أكل الخنزير مرة واحدة على سبيل التجربة مثلاً. وهذا لا يقول به أحد.

هذه القاعدة "خصائص المأكول تنتقل إلى الآكل" قد تكون صحيحة بسبب مبدأ التأويل القلبي، أي أن يفسّر "المأكول" على أنه كتاب علم مثلاً، و"الآكل" بالقارئ، و"الخصائص" بالفوائد التي في الكتاب، التي تنتقل شعورياً أو لاشعورياً إلى القارئ. أما من حيث الجسم فيصعب قبولها لأنها لا تصمد من أي وجه من الوجوه.

والشق الثاني من هذا الدليل هو قولهم أن "انعدام الغيرة في الدول الأوروبية دليل صدق هذا التحريم".

أولاً، إن الله إذا حرّم أمر فصل لماذا يحرمه، كما فعل في الخمر والميسر وغير ذلك من العقائد والأحكام. ولم يذكر "الغيرة" هذه ولا في موضع واحد، وهذه الكلمة نفسها هي من صفات العرب قبل الإسلام، كالشرف وما أشبه مما لم يذكره القرآن أبداً. فادعاء الرابطة بين تحريم الخنزير والغيرة هي دعوى مدفوعة لاشعورياً بعادات الجاهلية، كدعوى الشرف تماماً. لا أقول صحيحة أو خاطئة، ولكن هذا هو الدافع وراءها.

ثانياً، ما يسمّيه العرب "غيرة" هو في حقيقته تقييد المرأة لأسباب عدة ليس هنا محل تفصيلها، والغرب كما يعلم الناس قائم على عدم وجود سلطة لأحد على أحد إذا بلغ، وأساس العرب أن الكبير متسلط على الصغير، والذكر دائماً متسلط على الأنثى، ولذلك نجد في الدولة التي تأخذ بالشريعة الحقيقية حسب ما ترى، المرأة حتى لو كبرت، وتزوجت وأنجبت وطلقت، لا تستطيع أن تقوم بالكثير من الأمور إلا بإذن ولي أمرها، إن شاء وافق وإن شاء رفض، ثم المحكمة تفصل إن لم يكن رفضه مقنعاً، وهذا نادر.

ولذلك فان انعدام الغيرة عند الغرب حقيقته هو عدم تسلط الذكر على الأنثى قهراً لا غير. ولذلك ففي المجتمع الذي يأخذ بنظرية الغيرة قد نجد المرأة تريد أن تفجر مع سبعين رجلاً، ولكن تسلط الأب والأخ يمنعانها من الخروج من المنزل لتحقق رغبتها الحرة، وبالطبع هذا الحبس لا يفلح دائماً، لأن الأب قد يموت والأخ قد يسافر، فيصبح باب البيت مفتوحاً للزوار الكرام.

والغيرة كذلك متعلقة بالجنس. والغرب يسمح للبالغ أن يفعل بنفسه ما يشاء وأن يُفعل فيه ما يشاء طالما أنه بإرادته، فكل هذا معروف في القانون تحت مبدأ سلطان الإرادة. ولا علاقة لا بخنزير ولا لحمار في الموضوع.

ثالثاً، إن هذا الحكم المطلق لا محل له في واقع الأمر. إذ يكفي كما قلت أن تجد رجلاً واحداً يغير على أخته حتى يسقط هذا الحكم. ولو كان المقصود بالغيرة الشعور بالألم بسبب فجور الأخت مثلاً، فما أدرى هؤلاء ما يدور في قلوب الناس؟ ولو كان المقصود بالغيرة التسلط والحبس القهري فهذا القانون قد منعه تحت مبدأ سلطان الإرادة. فهذا الحكم لا يمكن إلا أن يصدر من جاهل متعسف يطلق الأحكام بدون أن يتحقق. ولعله وجد المرأة لا تتلحف بالسواد فحكم على كل المجتمع أنه تحت سلطان الخنازير. أو أنه شاهد بضعة أفلام فحكم على مليارات الناس أنهم

كلهم لا غيرة لهم، وليس هذا فحسب، بل هذه الغيرة مربوطة بأنهم يأكلون الخنازير. ألا يعلم هؤلاء بوجود الكثير من "عديمي الغيرة" ولا يأكلون لا لحم الخنزير ولا أي لحم؟ ألم يسمعوا ويردوا "النباتيين"؟ ومع ذلك هؤلاء النباتيين لا غيرة لهم.

فإذن نخلص إلى أن تحريم لحم الخنزير لا علاقة له بموضوع الغيرة. ومن قال بحرمة الخنازير لأنها تمنع الغيرة فعليه أن يقول بجواز لحم الكلاب لأنه يشيع الوفاء. والقرآن لا يذكر علاقة الخنازير بالغيرة ولكنه يذكر علاقة الكلاب بالوفاء في سورة تقرأ كل يوم جمعة وسميت القصة والسورة باسمها.

ويوجد دليل آخر يقدمه أهل العصر الحديث وهو أن "لحم الخنزير يحتوي على جرثومة مضرة أو جراثيم". فهؤلاء ينطلقون من مبدأ النفع والضرر، وهذا تقدم عظيم لأنه الأساس الذي قام عليه كل شيء. ولكن دعونا نمعن النظر في هذا الدليل.

إن الجراثيم قد يجد لها العلماء علاجاً، فعلى ذلك لو وجد علاج لهذه الجراثيم الموجودة في الخنازير فتصبح عندئذٍ حلالاً طيباً. وحسب علمي أنهم وجدوا علاجاً لهذه الجراثيم. فإذن يصبح الخنزير حلالاً إذا خلا من المواد المضرّة. ولكن من قال أن ما اكتشفه العلماء اليوم هو كل شيء؟ لو استطاع العلم أن يجزم أنه لا ضرر في الخنازير بعد هذا العلاج، فعندها يكون قد ارتفع سبب التحريم.

ولو كان الضرر الذي في الطعام يجعله حراماً، فإذن هذه الوجبات السريعة المنتشرة في كل مكان، والتي ثبت ضررها بكل أنواع الاثبات الممكنة، فيجب أن تحرم هذه الوجبات السريعة كلها. وهذا ما لا نجده واقعاً بل إننا نرى هذه المطاعم أمام أبواب مسجد النبي نفسه. فعلى الذين يسعون إلى اقناع الناس بحلية لحم الخنزير لسيرهم على مبدأ النفع والضرر، يجب عليهم أن يسعوا إلى تحريم هذه المطاعم كلها سيراً على نفس المبدأ.

ولو صح هذا الكلام لكان حكم الله في القرآن بشز, لحم الخنزير قد تغير، "ولا مبدل لكلمات الله" فلا يمكن إلا أن نقول أن لحم الخنزير المقصود في القرآن ليس هو لحم الخنزير الذي اصطلح عليه في عالم الأجسام. فهو من الأمثال الروحية كبقية القرآن "ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل. فأبى أكثر الناس إلا كفوراً".

وهذا الكلام كله مجرد مثال على معنى تعلق الحكم بالسبب وشؤون هذا المبحث الشديد الأهمية. واخترنا مثال لحم الخنزير لأنه شديد الشهرة وواضح للناس عامة.

وبناء على ما فات، فإن البحث على أسباب حكم الله يجب أن يبحث فيها في نفس كتاب الله. هذا لمن أراد اليقين. وما عدى ذلك فهو ظن حتى يقطع فيه بشاهد من القرآن، أو حجة علمية راسخة. ولكن لمن أراد أن لا يقع في القول على الله كذباً أن يفضّل أن لا ينسب إلى الله إلا ما قاله الله. فعقل الله كامن في عمق كتاب الله.

وأما من أراد أن يحث الناس على أمر ما يرى هو أنه حسن، أو أن يحذرهم من سوء ما يرى هو أنه قبيح، فعليه أن يؤيد كلامه بالدليل نفسه الذي أقنعه، ولا يستعمل اسم الله لفرض آرائه على الناس. نعم، كل كلام يصدر من انسان يعتبر رأيه، حتى الذي يفسر في كتاب الله يعتبر رأيه، ولكن الفرق بين الرأي الشخصي والادعاء أن الله قال هذا هو أن الله إذا ذكر في دعوى فيجب أن يذكر كلامه هو، فيأتي المدعي بالآية ثم يشفعها بتفسيره. وهكذا يعتبر أنه نسب إلى الله. أما لو لم يذكر آية فيعتبر رأيه الشخصي، وبذلك تكون قوة هذا الرأي مستمدة من الأدلة التي يذكرها. فالخطأ أو الكذب يقع من الانسان عندما يرغب في تقوية رأيه بنسبته إلى الله. وهذا من الكذب الذي تحذر منه الآية. والعلاج هو "هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين"، والبرهان إما قرآن أو تجربة. والقرآن قمة التجارب.

...-...

(٢٤) لماذا ظنوا أنه لن يقول الإنس والجن على الله كذبا؟ بسبب عزلتهم وفرط تجردهم.

فهؤلاء الجن عن العلماء المنقطعين عن الناس للدراسة والتأملات الروحية. وهذه التأملات تجعل الإنسان يبدأ يرى الله في كل شيء، بمعنى أنهم يرون كل شيء طاهراً مقدساً، إذ يخيّل إليهم أنهم يرون جوهر الأمور لاتصالهم بالجوهر الأعلى المقدس. فيصبح لسان حالهم "فأينما تولوا فثم وجه الله" وينتج عن ذلك أنهم يظنون أن أصل الإنسان دائماً هو عمل الخير.

وأيضاً من فرط ذكرهم لله صباح مساء، في توهم حضرته دائماً، ويغلب عليهم هذا الوهم حتى يشعرون به وكأنه حقيقة خارج نفوسهم. فيشعرون وكأن الله جالس أمامهم، وحاضر في كل مكان. وبسبب استغراقهم في شهود الوحدة فهم لا يرون فرقاً بين أنفسهم وأنفس الآخرين. فيتساوى عندهم شعورهم بالله مع شعور الناس بالله، فكما أنهم هم لا يمكن أن يقولوا سوءاً على الله فكذلك الناس أجمعين لا يمكن أن يقولوا سوءاً على الله.

والانقطاع عن الحياة العامة، والانزواء في البيوت، وحب الخلوات للقراءة والصلاة، هذه الحالة من الاعتزال تجعل الانسان قليل المطالب في الحياة من حيث المعيشة والجسمانيات، والرغبة في رؤية الناس لهم، والإشارة إليهم وتعظيمهم تصبح من ضرب المستحيلات لمن غرق في نور باطنه وباطن الحياة. ولذلك هم يسحبون ذلك على الناس عامة، فيظنوا أن الناس كذلك لا تطلب إلا الأمور الضرورية البسيطة، وحتى طلبهم هذا يقومون به بكل براءة ورحمة. ولا يتصورون أن يتحايل أحد ليكسب أو ليكبر.

فالاعتزال الروحي يخلق حالة من المثالية في الإنسان، وبما أن عامة الناس ليس لها هذه الحالة، فينتج عن تزاوج هذا العالم أو المتحدث والناس أبناء متعدددين بحسب حالة كل واحد من الزوجين.

فقد تولد حالة الخداع الديني، وهو أن يتكسب هذا العالم من الناس البسطاء بأن يحشي رؤوسهم بمثالياته، ويملأهم بالأمل الكاذب الذي ليس له تحقق إلا في خياله. والناس عامة تحب

من يخلق فيها الأحلام الراقية، بسبب سوء حالتها المعيشية أو مللهم من الحياة ورتابتها بشكل عام. فيستغل هذا العالم هذه الحالة لمنفعته ولا يبالي بغير ذلك.

وقد تولد حالة التصوف الديني، وهو أن يرغب هذا العالم الناس بالاعتزال مثله، ويصف لهم مشاهداته وحالاته وسعادته، ويبث فيهم قيم الزهد السلبية، كالخضوع والتواكل والفقر والتسليم وما أشبه.

وقد تولد حالة الاصلاح الاجتماعي، وهو عندما ينزل العالم من سماء عزلته إلى أرض الحياة العامة، ويحاول ويسعى أن يوفّق بين القيم الاعتزالية والاجتماعية، بأن يعلم تقسيم الأوقات، واختيار الرغبات، واصلاح وتطوير المؤسسات، فتصبح عزلته هي دافع للتطور والحركة الروحية في المجتمع بدل السلبية والخداع. وهذا أحسن الأبناء.

فالاعتزال مقدمة عظيمة للعظيم من الأعمال. إذ من المعلوم أن كل حركة ظاهرية منشؤها حركة باطنية تسبقها وتولدها. والاعتزال هو نقد للحركات الباطنية، ونظر عميق في الأفكار والغايات. ثم إذا اختار الإنسان ما يريد، وحدد كيف سيعمل، فإنه يعمل بثقة عالية ووضوح حسن. وهكذا، فكما أن لكل إنسان في يوم فترة للنوم والأكل فيجب أن يجعل لنفسه فترة للاعتزال والتأمل. وأعمق الناس في الحياة هم أعمقهم في الاعتزال والتأمل.

فهذه الآية المباركة تحذر من فرط الاعتزال والغرق في المثالية الباطلة، وتحث على التوازن بين الاعتزال والاجتماع بحيث يكون كل منهم ينمي الآخر ويحسنّه. فالاعتزال يجعل الاجتماع أقوى وأجمل، والاجتماع يجعل الاعتزال أرقى وأنفع. "وكذلك جعلناكم أمة وسطا".

...-...

(٢٥) لماذا قدّم ذكر الإنس على الجن؟ لأن الإنس هم عامة الناس الظاهريين السطحيين، والجن هم الخاصة المفكرين رجال الدين، وحال العامة هو الذي يوحي إلى الدعاة المنافقين كيف وبماذا يخاطبون الناس حتى يكسبوا رضاهم ومِن ثَمّ أحوالهم.

رجل الدين هو كل من يدعوا الناس إلى فكر ما يدعي ارتباطه بالغيب. ونطلقه هنا خاصة على المتكسبين بالدين، سواء مباشرة كأن يدعي وجود حق لله في أموال الناس يجب أن يدفع له، وهذا هو رجل الدين الحقير الضفيق، وغير مباشرة كأن يأخذ الأموال مقابل تدريس الناس أمر الله.

أما حكم الله في مثل هؤلاء فبين، يقول للناس "اتبعوا من لا يسألكم أجراً"، ويقول على لسان دعاة النور "لا أسألكم عليه مالاً" فآية الدجال طلب المال، آية الدجال طلب المال، آية الدجال طلب المال.

ورجل الدين المنافق يريد أن يعيش بالكلام، ويريد أن يردد الكلام الذي أتاه بالمجان، فهو لم يدفع فلساً لجبريل لكي ينزل إليه القرآن، ويريد كما يريد كل الناس الراحة، وهو يطلبها من أقصر الطرق.وما أقصر الطرق لكسب المال؟ أن تقنع صاحب المال أن يعطيك إياه.

وانقسم رجال الدين في أخذ المال إلى ثلاث فرق، اثنان في جهنم وواحدة في الملكوت. أما الفريق الأول فهو الذي يأخذ المال من الحكومة، والثاني الذي يأخذ المال من عامة الناس، والثالث هو الذي يعمل ليعيش ويعيش ليعلّم أمر الله. الأول معدود في عباد فرعون وأوتاده، والثاني من المحرفين للكلم عن مواضعه، والثالث هو عبد الله ورسوله.

أما عابد فرعون، فلأن الحكومة غايتها البقاء في منصبها، ولها إلى ذلك وسائل منها استعمال رجال الدين لكي يعلموا الخنوع والسكوت وانتظار المهدي عليه السلام والعمل للدخول في الجنة بعد الموت وما أشبه.

وأما المحرّف، فلأن معيشته معلقة على رضا الناس عنه، وعامة الناس ترغب في السطحيات والأمور العاطفية الكاذبة والسهلة والخرافات، فلكي يعيش يجب أن يرضيهم، ولكي يرضيهم يجب أن يحرف كتاب الله ويكتم آياته المخالفة لهوى العامة الأنعام، بذلك يجب عليه أن يحرف لكي يعيش، والضرورات تبيح المحظورات، والحمد لله على يسر الإسلام.

وأما الرسول، فهو الذي يعمل كما يعمل الناس لكي يعيش، وقد فصّل الله أحسن نظام للعمل للمعيشة في كتابه كما بينا في موضع آخر، ويحيى بالدين بنفسه، وبذلك يصبح أقرب لإصلاح الناس من حيث استقلاله المالي عنهم، ومن حيث كونه واحد منهم، ويجعل حياته قائمة على التأله والدراسة، وليس أحسن من هذا أحد.

والآية تعلم أنه إذا ظهر عبدة فرعون والمحرفين يجب على الرسل أن تظهر وإلا فهم من الذين يكتمون النور بعد أن أظهره الكتاب.

...-...

(٢٦) نلاحظ أن سبب استعاذة رجال الإنس برجال الدين هو أن رجال الإنس كانوا في رهق، وأرادوا أن يرفع رجال الجن عنهم هذا الرهق، فقام هؤلاء وزادوهم رهقاً، أو أنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا لهم شيء أصلاً وانتظارهم للنتائج هو بحد ذاته رهق. فلماذا ظن الإنس أن الجن باستطاعتهم رفع الرهق؟ لأن أصل الرهق من الجسم، والجن لا جسم لهم.

والجن لا جسم لهم بمعنى أنهم لا يبالون بالجسم، أي لا يطلبون اللذة من شؤون الجسمانيات، كالطعام المزوق، والبيوت الفارهة، ونظر الناس وما أشبه ذلك من الأمور الجسمانية. فاللذة عندهم من القلب، أي بالدراسة والروحانية، ولذلك لا يعرفون الرهق. أما الرهق الذي يصيب العقل من كثر الدراسة والتأمل فهو من الرهق الممتع الذي يسمّى لذة السكر الروحي. فهو حالات من الغيبة عن الكثرة، وشعورهم بالفهم العميق، واستغراق في نور لامتناهي، فهو ليس رهق كالذي يصيب أهل

الجسم، أي الذين يجعلون لذات الجسم هي أولويات حياتهم فإذا أعطوا منها رضوا وإذا حرموا منها إذا هم يسخطون، ولذلك يصيبهم الرهق الذي هو التعب الزائد وخوار القوى وفيه شعور باليأس.

وهؤلاء الرجال من الإنس يعبرون عن الذين يرغبون في لذة الجسم في الأصل، وهم يذهبون إلى الجن لكي يعلموهم كيف يشعرون بالفرحة، فإذا الجن يقولون لهم "يجب أن تقيموا حياتهم على أصل التأله، ثم التأمل، ثم الجسم، وبذلك تكون فرحتكم دائمة، لأن السبب لن ينقطع" والرهق الذي سيصيب الإنس هو عندما لا يفهمون هذا الكلام، ويقع عليهم اليأس لأنهم لا يجدون أحداً يدلهم على الفرحة الدائمة، إذ البشر إما إنس مثلهم أو جن لن يقولوا إلا كما قال هؤلاء، وهو لا يعجبه إلا لذة الجسم، فيزداد تعباً على تعبه، ويأساً على يأسه.

والجن يعلمون أن الفرحة الحقيقية التي لا فرحة غيرها هي باتصال القلب بمشكاة النور الإلهي، فيحيا الانسان كل يوم في نعيم التعلم والفهم، وبأن يغشى القلب نفحات من الخمر العشقي، فيسكر الإنسان بالوحدة المتعالية ويرى توحد الوجود المطلق "هو الأول والآخر والظاهر والباطن". والنور "لا شرقية ولا غربية" والوجود "هو الأول والآخر والظاهر والباطن" فالأمر لا يحتاج إلى مكان معين ولا زمان معين ولا شيء إلا رغبة القلب. وهذا الاتصال بالنور هو النبوة. والذي يصل يكون قد ماتت نفسه القديمة، وبعث نبياً في هذا المقام "ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً" وهي نبوة التفهيم، فحتى صاحب نبوة التعليم يجب أن يسعى لأن يبعث في مقام نبوة التفهيم، ولذلك سافر موسى إلى العبد الصالح مع أنه كليم الله، فافهم.

وهذا هو البعث الحقيقي لا غير. ولذلك يرفض الناس الأنبياء، لأنهم "ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً".

...-...

(٢٧) ما الذي يجعل الناس تظن أن لن يبعث الله أحداً ؟ أنه لا يوجد نبوة أصلاً، أن الله بخيل، أن النبوة أغلقت أبوابها كلها وختمت.

أما انعدام النبوة والبخل فهما ليسا في قلب المؤمن بالقرآن، وأما فكرة ختم النبوة فهي السائدة بين كل الناس إلا قليلا. فلننظر في قولهم، إذ هذا القول أساس تعاستهم، ولا قوة إلا بالله.

يقول الله "وما كان محمد أبا أحد من رجالكم.ولكن رسول الله.وخاتم النبيين. وكان الله بكل شيء عليماً" ويفهمون أن كلمة "خاتم" تعني آخر. وبذلك يكون محمد آخر نبي ولا نبي بعده.

يقول الله "وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً. أو من وراء حجاب. أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء" فكلام الله مع البشر له ثلاث طرق، بالوحي المباشر، وبالوحي من وراء حجاب. وبالرسول الذي يوحي لمن يختاره الله. القرآن نزل بأي طريقة من هذه الثلاثة؟ الكل يعلم أنه نزل

بالطريقة الثالثة، بالرسول الذي هو جبريل. ولذلك قال عن القرآن "إنه لقول رسول كريم. ذو مرة عند ذي العرش مكين".

يقول الله "أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون. إن هم إلا كالأنعام" هذه الثلاثة تقابل تلك الثلاثة تماماً، فالذين يسمعون هم الذين يسمعون الوحي المباشر من الله نفسه، فعندما لم يرتقي الناس إلى هذه الدرجة أظهر لهم أمره من وراء حجاب الرؤيا وصور المخلوقات الآفاقية كالأمثال التي تفسيرها يعلم أمر الله، وهي درجة "يعقلون" لأنهم يربطون بين الصورة والمعنى، وهذا هو العقل، فلما لم يعقلوا وأصبحوا كالأنعام أنزل الله لهم كتاباً لكي يتعلموا منه مباشرة وهي الدرجة الثالثة.

الدرجة الأولى لا يمكن أن تغلق إلا رذا مات الله. والدرجة الثانية لا يمكن أن تغلق إلا إذا فني العالم الآفاقي والنفسي أو أصاب الإنسان عمى، والدرجة الثالثة هي التي ختمت بمحمد والقرآن، فبعد القرآن لا يوجد كتاب جاهز سينزل، ولم يبق إلا استقلال الناس بالتأمل والفهم.

وأصلاً الوحي بالدرجة الثالثة دليل سقوط الناس وليس رقيّهم، ولذلك قال الله في سورة النجم "أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون" فيجب أن يبكي الناس لأن نزول هذا النوع من الوحي دليل على أنهم أصبحوا كالبهائم الهائمة على وجهها في الأرض. "إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا" فالذي خُتم إنما هو أقل درجة من درجات الوحي، ولذلك لم ينزل الله لكل قوم كتاباً من عنده بلسانهم لأن الأصل أن يبلغ الناس إلى السماع والعقل، والاستثناء هو نزول الكتاب. فالأصل أن يتسلق الناس الشجرة لقطف الثمارة، والنادر هو أن تقع الثمار من الشجرة على الأرض ليأكلها الانسان جاهزة. ولذلك قال عن معارف القرآن "قطوفها دانية" فما أتعس العربي الجائع.

فنحن العرب قد فضلنا الله بهذا القرآن إذا فهمناه، فالأمم التي بلا كتاب إلهي تشبه العبيد الذين يعملون في الحقول وينتظرون الثمار التي قد تخرج كما يشتهون وقد تفسد وقد يأكلها الجراد وما أشبه، أما نحن فقد جعلنا الله كالملوك التي تجلس في بيوتها ويقدّم لها الطعام. "وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين" فالفرق بيننا وبينهم أن عندنا طريق الفهم وعندهم طريق الألم.

طريق التدبر هو طريق الفهم، وطريق التجربة هو طريق الألم. كلاً وعد الله الحسنى، فقد يبقى عالم التجربة ثلاثين سنة يريد أن يتعلم ماهية الأحلام، ويفهمها العالم بالقرآن في ثلاثين يوماً.وإذا فرغ عالم التجربة سيجد أن ما وصل إليه هو نفس ما وصل إليه عالم القرآن، بل عالم القرآن أكثر وأحسن. وهذا معنى "لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر".

العربي الذي لا يسلك لا طريق القرآن ولا طريق التجربة هو المقصود بقوله "بل هم أضل سبيلا" وخير الناس من جمع بين الطريقين "نور على نور"، إذ كل منهما يغذي الآخر، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وأن إلى ربك المنتهى.

السماع هو نبوة التفهيم، والعقل هو طريق التأمل والتجربة، والقرآن هو قول جبريل الذي ختم هذا النوع من النبوة.وهذا هو التدرج من الأعلى فالأعلى، وأصحاب نبوة التفهيم هم الأئمة العلماء.

...-...

(٢٨) "وأنا لمسنا السماَء" من هم الذين يتكلمون في السماء، أي الذين كانوا يقعدون ليسمعوا لهم "وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع" ؟

هم الملأ الأعلى. "وما كان لي علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون" وهؤلاء هم رؤوساء الملائكة الثمانية، كملك الموت وجبريل، فهو كالمجلس المعروف بمجلس الوزراء. وما هذا إلا مثل على ذاك مع فارق أو أكثر، ككون وزراء الملأ الأعلى ليسوا أصحاب كيد واحتيال وخسة.

وفي كل سبت يجتمع الملأ الأعلى خاصة، ويتدارسون أمر الله والقرآن، وفي هذا الوقت فإن الإمام يسمع ما يدور بينهم، إذ هو مأذون له في الدخول إلى المجلس، لأنه خليفة الروح الأعلى.

و"السماء" تدل على القلب، كما أن "الأرض" تدل على الجسم، فكما أن السماء تعطي الأرض، كذلك القلب يعطي الجسم، وهل لو توقف القلب يتحرك الجسم؟ وكما أن الجسم يرى الأجسام، كذلك القلب يرى القلوب، وعالم السماء هو عالم القلوب كما أن عالم الأرض عالم الأجسام. كما أن للجسم حياة وأمور تزيد من قوته كالرياضة وصحته كحسن التغذية والنوم الحسن، كذلك للقلب حياة وأمور تزيد من قوته كالصلاة وصحته كتدبر القرآن والتأمل الباطني. فصاحب القلب الميت في السماء كصاحب الجسم الميت في الأرض. والبعث من القبور هو خروج القلب الميت إلى الحياة السماوية الباطنية "أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس".

ما معنى لمس السماء؟ لقد جعل مجلس الملأ الأعلى هو السماء، لأنهم قالوا "وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع" ووجود الحرس الشديد. وذلك لأن قلب الشيء أهم ما في الشيء، الذي لولاه لما كان الشيء أصلاً. ولذلك قد يسمهى الشيء باسم قبله لهذا السبب. وقلب العالم الأعلى هو مجلس الملأ الأعلى، إذ منه يصدر كل أمر "والمقسمات أمرا".

ولقد ذكروا أنهم يقعدون، وقد قال الله "الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً" والقعود هو حال التأمل والدراسة، وهذا شاهد آخر على كون الملأ الأعلى يدرس القرآن من اللوح المحفوظ مباشرة.

واللمس هو الاقتراب الخفيف من ظاهر الشيء، فقط للشعور به، وهكذا هو السمع، فالسمع أشبه شيء باللمس. وقولهم "وأنا لمسنا السماء" ثم عدم السماع لهم بالقعود للسمع، أو بالأحرى عدم

السماح لهم بالاستماع، يدل على أن كل أحد أيا كان يستطيع أن يحيا في السماء، ولكن ليس كل أحد يستطيع أن يجلس في المجلس الأعلى. ففهم الآيات السبع الأولى من سورة الجن كفيل يجعل الإنسان في الملكوت، ولكن للحياة مع الملأ الأعلى يحتاج الإنسان إلى أكبر من ذلك، ومن كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت، والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا . وإن الله لمع المحسنين. والحمد لله رب العالمين.

....انتهى والحمد لله.